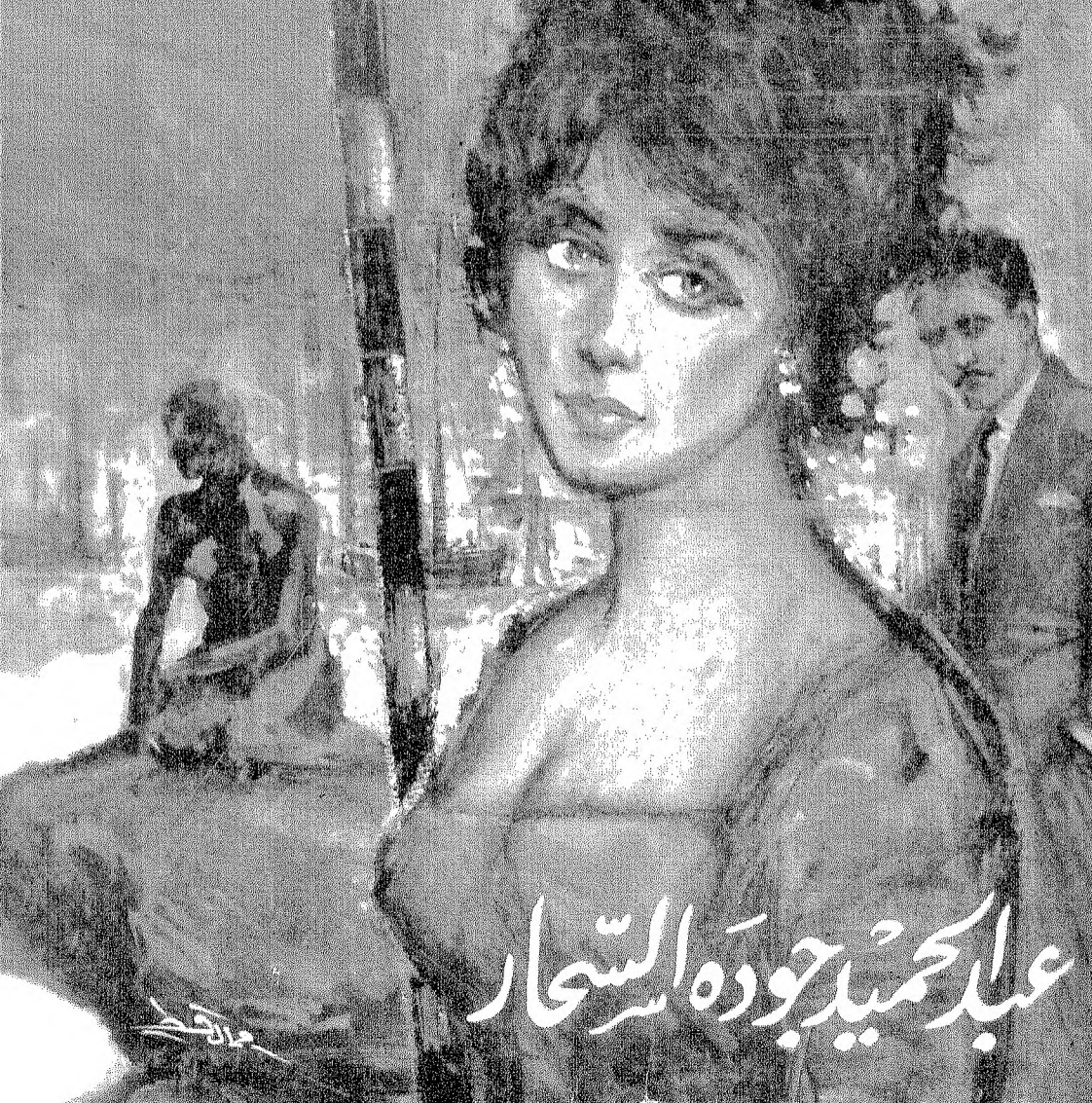


ليلة عاصفة



عبد الحميد جودة السحار

م. الكحل

ليلى علمة

فَقَابِلِي رُومَا

عاد طاهر إلى مقعده في الطائرة ، بعد أن استراح في مطار أثينا واشترى بعض هدايا لناهـد . واستأنفت الطائرة رحلتها إلى روما ، واسترخى في مقعده وشرـد ، وراحت مشاهد قصته مع ناهد تمر في ذهنه بأدق تفاصيلها ، وما كانت تتجسم له لأول مرة في هذا النهار ، ولكنها لم تبرح خياله منذ عقد العزم على أن يسافر إلى روما لمقابلتها بعد ثلاث سنوات من فراقهما ..

كان ما يزال طالبا في الجامعة ، وقد رآها أول مرة في فناء الجامعة مع أترابها فأحس كأن مغناطيس روحها يجذبه إليها . لم تكن أجمل الفتيات ، ولم تكن تتمتع بحسن صاـرخ يلوى العنق ويهر النظر، ولكنه وجد روحه تهفو إليها ، وقلبه يخفق خفقا لذيذا منعشا عندما تقع عينه عليها . واعتقد أن ذلك عرض زائل ، ولكنه لما دخل فراشه ألفى نفسه يفكر فيها وهو نشوان ، يلوك صورها في خياله وهو يستشعر تلك اللذة التي يحسها الجائع وهو يلوك أول ما يدخل فمه من طعام .

وانطلق في البكرة إلى الجامعة ، ينقب عنها في كل مكان . راح يحول حول أبنية الجامعة ويجوس خلال قاعاتها ، وذهب إلى الباب الكبير أكثر

من مرة ، ودقت الساعة دقاتها العالية ، ولكن دق قلبه كان يطفو في أذنيه على كل صوت حتى يغمره . وأخيرا لمحها قادمة وحدها في الطريق الواسع القادم من ناحية الترام ، فسرى فيه خوف هادئ لذيد ، ورقص قلبه رقص عرييد ، ووسوست له نفسه أن يتقدم إليها ، ولكنه تسمر في مكانه وجعل يرنو إليها وهو سعيد .

ومرت به دون أن تحس وجوده ، ولكن كل خلجة فيه أحست كأن ريشة نعام تدغدغها ، وأن نسائم الصبا هبت عليها ، وأن عوالم فسيحة من السعادة تفتحت أمامها تفتح الورود لندى الصباح .

وجعل يفكر في وسيلة تدنيه منها ، إنه في السنة النهائية وهي لم تطأ أعتاب الجامعة إلا هذا العام ، أيذهب إليها ويسألها أن تعيره كتابا لليلة واحدة ، يراجع فيه بعض المواد التي غابت عن ذهنه منذ كان في السنة الأولى ؟ ولكن أين ذلك الكتاب المقرر على السنة الأولى الموصول الصلة بمحاضرات السنة النهائية ؟ ولماذا هذا اللف والدوران ؟ لماذا لا يذهب إليها يحببها ويحدثها محادثة الزميل لزميلته ؟ آه لو لم يكن قلبه خفق بحبها إذن لكل ذلك أمرا ميسورا ، إنه يهاب أن يتلغم أو يتصرف تصرفا خاطئا غير مقصود فيقضى على الأمل الدفء الذي اشتعل فجأة في أغواره لينير له طريق حياته .

وعاش يفكر في الوصول إليها ، وتعطلت في نفسه مشاكل الحياة كلها إلا مشكلة ربط أواصره بأواصرها ، ولم يطمئن إلى تدبير ، وفجأة وافته فرصته مصادفة ، إذ لمحها واقفة في ثلة من الزملاء وقداح الحديث

تدور بينهم ، وكان بين الثلاثة أحد أصدقائه فذهب إليه وحياه ، ثم حيا الجميع تحية خاطفة ، والتقت عيناه بعينها برهة كانت من أحفل لحظات حياته بالمتعة .

وراحت تتحدث مع المتحدثين ، وهو يصيخ سمعه لصوتها الذى يتردد فى جنباته تردد الناي فى معبد ، وقد هامت روحه فى دنيا مترعة بالمشاعر الرقيقة الهفافة المتدفقة من عين صافية .

وعاد إلى البيت فى ذلك اليوم خفيفا كالطيف ، رقيقا كالنسيم ، كل ما يراه جميل ، وما يصل إلى أذنيه عذب ، وما يحسه نشوة ، وما يخفق بين جنباته لذة ، وما يسرى فى عروقه خمر ، وما يتدسس إلى ذهنه صفاء ، فهو محب أشرف على رنى الحبيب .

وفى الصباح كان يرصد محطة الترام التى ستهبط فيها ، وكان كلما لمح طالبة هابطة خفق قلبه فى شدة ، وأرهفت حواسه ، وزاد تردد أنفاسه سرعة ، واتسعت عيناه ، حتى يعود إليه هدوؤه المغلف بقلق ممزوج بلذة ، يسبح فى أبخرة منبعثة من مجمرة نشوته .

وشعر بمقدمها فزاده قبل أن تتبينها عيناه ، فإذا بقلبه يقفز حتى يكاد يفر من فيه ، ثم يهبط حتى يصل إلى أقدامه . وفر بعيدا ، وسار فى الطريق الجانبي زائع البصر لا يستقر له قرار ، وراحت مشاعر كثيرة غزيرة تتدفق فى أعماقه حتى كاد يختلط عليه أمره ، وراح يلم أطراف شجاعته التى تبددت تبدد الظلام إذا ما بهره النور .

وخفف من خطوه وهو يرقبها ، إنها تدنو منه ، ولو عرج من الطريق

إلى الطريق الرئيسى لالتقى بها ، ولبدأ ذلك مصادفة غير مدبرة ، ولم يكن ذلك أمرا هينا ، فراح يقاوم الضعف الذى استسلمت له حصون نفسه ، وحمل عليه حملة صادقة ، حتى إذا بدأت هزيمته لم يترث حتى يجمع فلوله ، بل عرج إلى الطريق الرئيسى وأصبح أمامها وجها لوجه ، وسدت سبل النكوص على الأعقاب .

قال وهو يتسم ابتسامة عذبة :

— صباح الخير .

— صباح النور .

وسارا جنبا إلى جنب يتحدثان حديثا عاديا لا جاذبية فيه ، ولكن بلابل نفسه كانت تشدو ، فملأت الكون كله طربا وحبا ، وكست كل ما يمد إليه بصره روعة وجمالا وسحرا حللا .

وراحت الأيام تمر ، والعلاقات بينهما تزداد توثقا ، ودعاها إلى السينما مرة ، وخرجها إلى الجزيرة معا ، ثم تطورت الصلة بينهما إلى حب عارم جارف ، وأصبح كل منهما لا يطيق أن يبعد عن الآخر يوما واحدا .

وانتظرها ذات يوم قبل امتحانه النهائى فى حديقة جرونى ، وجعل ينمق ما سيقوله لها ، فقد عزم على أن يتخذ أخطر قرار فى حياته ، ذلك القرار الذى سيشرده إلى الأبد إلى امرأة بعينها ، ولحها مقبلة . فقام يستقبلها باشا مرحبا .

وجلسا يتبادلان النظر فى صمت . ولكن حديث العيون كان أفصح



إنها تدنو منه ، ولو عرج من الطريق الجانبى
إلى الطريق الرئيسى لالتقى بها.

من كل بيان . وأخرج علبة سجائره وناولها سيجارة وأخذ أخرى ،
وأشعل لها سيجارتها ثم أطفأ عود الثقاب في حركة عصبية ، وأخرج
السيجارة من فمه وقال :

— سنتزوج يا ناهد ، لم أعد أطيق بعدك عنى لحظة . طيفك يلازمنى
في خلواتى ، في غدوى ورواحى ، في ساعات غفوى ، وفي أوقات
يقظتى ، صورتك في كل كتاب ، في كل ما أمد إليه بصرى ، قائمة في
ذهنى ، منقوشة في قلبى ، مسيطرة على وجدانى . إننى بدونك عدم ،
أنت نهر الحياة المتدفق في حياتى ، النسائم الباردة في سفير زمنى ، الواحة
الظليلة في صحراء وجودى ، النبض المتردد بين جوانحى .

بعد أن ينقضى الامتحان سأقدمك إلى أهلى ، سأقول لهم : ناهد
زوجتى ، شريكة حياتى ، حبيبة فؤادى ، درعى في الحياة .
وأطفأت سيجارتها وهى ترنو إليه في وجد ، ثم انبثقت في عينيها
لؤلؤتان .

وتعاقب الليل والنهار وما تسرب إلى نفوس الناس الملل ، فقد كانت
تغمر قلوبهم الآمال . وانقضى الامتحان وتخرج طاهر في الجامعة ،
وأخبر أمه أنه عزم على الزواج ، وأنه اختار زوجته وسيقدمها لها .
وجاء إلى البيت وناهد في يده ، تستشعر رهبة خفيفة تنتشر في
أعماقها ، فقد كانت مقدمة على أدق اختبار ، ولم تخف مخاوفها بل قالت
له لتطمئن نفسها :

— لم أحس مثل هذا الخوف في أثناء الامتحان .

فضغط على يدها فى حنان ولم ينبس بكلمة .
وقادها إلى غرفة الاستقبال ، ثم تركها وخرج ، وسرعان ما عاد وأمه
معه وقال فى انشراح :

— أمى .. ناهد .

وصافحت الأم الفتاة وعيناها تتجولان فيها سريعا ، ثم قالت وهى
تجلس :

— تفضلى .

وجلسوا يتحدثون ، وفتحت ناهد حقيبتها وأخرجت علبة
سجائرها ، وسحبت سيجارة بأناملها وراحت تشعلها ، فتغير وجه
الأم ، ولم تفتن ناهد إلى ذلك ، ووضعت ساقا فوق ساق ، ووقعت
عين الأم الفاحصة على بطن فخذها فاستشاطت غضبا ، ولم تستطع أن
تكبت ثورتها فقامت وغادرت المكان منفعة .

وشعرت ناهد أن الأم تركت المكان محتدة ، فراحت تنظر إلى طاهر
نظرات كلها قلق ، ولم تفتن إلى ما ساءها . وانتزع طاهر من شفثيه
ابتسامة لينزل السكينة بقلبها ، وإن كان القلق قد انتشر فى أرجائه .
وقام مستأذنا وانسحب إلى حيث ذهبت أمه ، وكان يخطو متمهلا
وإن كانت الثورة متأججة فى نفسه ، وما أن وقعت عينا أمه عليه حتى
صاحت .

— هذه قد تصلح أن تكون راقصة ، أما أن تكون زوجة ابنى فلن
يكون هذا أبدا .

— ١٢ —

— إننى أحبها وسأتزوجها .

— إن تزوجتها فلن تكون ابنى ، سأتبرأ منك ليوم القيامة .

— أنت قاسية .. ظالمة . لماذا تهدمين بمعاولك فتاة طيبة ليس لها

جريرة إلا أنها أحبت ابنك ، وأحبها ابنك ؟

فقالت فى صوت كالرعد :

— لو كانت طيبة لما جاءت مع شاب إلى بيته دون علم أهلها ، ولما

قبلت أن تعرض فى سوق الدلالة كالسبايا .

— أمى .. هذا كفر .. هذا حرام .

واحتدم النقاش بينهما ، واندلع لهيبه ، وبلغ مسامع ناهد ما كانت
الأم تتفنن فى صبه على رأسها من سباب واتهامات ، فقامت حائقة تغادر
المكان كعاصفة هوجاء .

وعاد طاهر إلى غرفة الاستقبال والشرر يتطاير من عينيه ، والغضب
يأكل صدره ، ولم يجدها فزادت ثورته ضراما ، وخرج إلى الشارع يعدو
وراءها ، ولكن لم يعثر لها على أثر .

وطفق يبحث عنها فى كل مكان يعرف . . . وره دون جدوى
واستبد به قلقه وراح وجده يعذبه ، وأخيرا ذهب إليها فى بيتها ليطفئ
لهيب اللوعة التى تؤرقه وتخز روحه . ولكنه علم أنها سافرت مع أهلها
إلى الإسكندرية تمضى الصيف هناك .

وخطر له أن يسافر وراءها ، ولكن العمل الجديد الذى التحق به لم
يكن يسمح له أن يغادر القاهرة ، لينقب عن تركته يتلظى بنار الوجد

والحرمان .

وتقضت أيام الصيف وهو يعلل النفس باللقاء والعتاب والصفاء ثم
بحياة هائلة سعيدة ، بعد أن أفلح في إلانة قناة أمه التي كانت تقسم بأغلظ
الأيمان أنها لن ترضى عن هذا الزواج أبدا .

واستقبلت الجامعة عاما جديدا ، وانطلق طاهر إلى هناك ليقابل
ناهد ، ويعتذر لها عما كان ، ويمسح جرح نفسها ، ويخبرها أن أمه ذاهبة
إلى أهلها لتخطبها له منهم ، لعل ذلك يرضيها ، ويكون كفارة لما بدر منها
في حقها .

وجعل ينقب عنها هنا وهناك دون أن تقع عليها عيناه ، ولمح بعض
صواحبها فاتجه إليهن وقال :

— أين ناهد ؟ ألم تأت بعد ؟

فقال إحداهن :

— سافرت .

فقال في لهفة :

— إلى أين ؟

وكأنما لذ لها أن تعذبه ، فجعلت تقطر له النبا قطرة قطرة :

— إلى الخارج .

فقال في شيء من الحدة والضيق :

— إلى أين ؟

— إلى إيطاليا .

— لماذا ؟

— لتكمل دراستها هناك .

ودارت به الأرض ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، وأحس كأن أثقال العالم تكاد تنقض ظهره ، وأن صدره بات مستودعا للمرارة والأسى . وكاد يركن إلى يأسه ، ولكن بصيصا من الرحمة تسلل في ذلك القتام وهداه السبيل ، راح صوت حنون يهمس في أذنيه أن عليه أن يعمل ، وأن يجد في عمله حتى يجمع من المال ما يمكنه أن يذهب إليها هناك في إيطاليا يعلن لها عن أسفه ، ويحدثها عن لبيب الجفاء الذى تلظى فيه سنى الحرمان ، ثم ينبئها أنه قد تطهر وأصبح جديرا بالجنة التى تنتظره .

واندمج في عمله وأفنى فيه نفسه ، وظيفها ينفث فيه العزم ، ويمده بقوة طاغية . وما انقضت ثلاث سنوات حتى حقق نصف حلمه ، وأصبح معه من المال ما يكفى لسفره وأوبته ، وإتمام زواج سعيد ، وتهيئة عش هائى ترفرف الطمأنينة عليه بجناحيها .

إنه فى طريقه الآن لتحقيق أمله ، وإرواء ظمأ نفسه ، وتغذية فؤاده الذى كاد يتلفه جفاف الحرمان بخنائها الدفاق الذى يغرس فيه الحب ، ويضشى على كل ما فى الكون هالات الحسن والجمال .

وهبطت الطائرة فى مطار شيامينو ، ونزل إلى الأرض ، واستقبلته المضيفات الإيطاليات ينطقن الإنجليزية ولكنها أمريكية ، وسار مع من ساروا إلى الجمر ك . وسرعان ما انتهى من الإجراءات ، واندس فى السيارة التى ستقله إلى قلب روما .

وانسابت السيارة فى طريق على جانبيه خضرة ، وعن يساره قضبان المترو ، وفى سمائه سحب خفيفة ، وقد راحت ترعى فى المراعى الخضراء بعض قطعان الضأن ، ولم يحفل بالمشاهد التى راحت تتتابع أمام عينيه ، فقد كان مشغولا عنها بالأفكار التى كانت تنبض حية فى رأسه .

ووقفت السيارة فى الشارع المنحدر المزدحم بالسيارات على جانبيه ، المنطلق إلى ميدان بربارينى ، ونزل من فيها واتجهوا إلى مكتب شركة مصر للطيران ، وراحوا يتسلمون حقائبهم . أما هو فقد راح يسأل عن رقم تليفون المركز الثقافى بسفارة الجمهورية العربية المتحدة . واهتدى إلى الرقم وراح يطلبه ، وارتفع صوت من بعيد نبراته

عربية :

— ألو .

— أرجو معرفة عنوان الآنسة ناهد رضوان .

— من المتكلم ؟

— قريب لها جاء من مصر لزيارتها .

— لحظة من فضلك .

وانقطع الصوت ، وبدأ طاهر يستشعر غرابة موقفه ، أيعقل أن يأتى قريب من مصر خصيصا لزيارة قريبته دون أن يعرف عنوانها ؟؟ وقبل أن يستسلم لأفكاره جاء الصوت من الطرف الآخر :

— فى باجلىفى رقم ١٧ .

— متشكر . حسبت أنها تركت هذا المنزل .

ووضع السماعه وهو يعجب من نفسه ، لماذا كذب وجعل الرجل يعتقد أنه كان يعرف ذلك العنوان ؟ إنه أحس في أعماقه ضعف مركزه فكذب ، ولم يكن أمامه فسحة من الوقت لمحاسبة نفسه . فترك حقائبه في مكتب الطيران ، واندفع في أول تاكسى قابله وقال :

— فيا باجليفى .

— ولم يعرف كيف ينطق الرقم ١٧ بالإيطالية ، فراح يقول :

— Dix Sept ; Seventeen ، سبعة عشر .

وأخيرا أخرج ورقة وقلمًا وكتب : 17 .

وانطلقت السيارة به ، وراحت تطوى شوارع مزدحمة قامت فيها تماثيل كثيرة ، ولم يكن يدرى أين يذهب فاسترخى في مقعده ، ولكن رأسه كان ينبض بالأفكار ، وصدره يخفق بشتى المشاعر والإحساسات .

ووقفت السيارة أمام منزل أشبه بمنازل الإسكندرية في الشوارع الجانبية ، وهبط من السيارة بعد أن ألقى نظرة على العداد الموضوع داخلها إلى جوار السائق ، وكان قد سجل ٣٠٠ ، فأخرج من جيبه ثلاثمائة ليرة ودفعها إلى الرجل ، ولكن هذارفض أن يتسلمها وراح يشير بأصابعه الأربع ، وفهم طاهر أنه يطلب أربعمئة ليرة ، ولم يكن يقدر على التفاهم معه ، فنقده ما طلب ثم وقف يتلفت .

ولح دكان بقال بالقرب من المنزل ، فذهب إليه وقال :

— سنيوريتا ناهد .

ووقف الرجل صامتا برهة وهو ينظر إليه ، ثم قال كأنما أدير فيه زر
كهرى أضاء رأسه :

— أوه .. سى سى .. اجييسيانو .

وتدفق الكلام من فمه ولم يفهم طاهر حرفا ، ولكنه نظر إلى حيث
يشير ، وعلم أنها تقطن فى الطبقة الثانية .

وراح يصعد فى الدرج متمهلا ، حتى إذا ما بلغ الطبقة الثانية راح
ينقل بصره بين الأبواب الثلاثة التى أمامه لا يدرى أيها يطرق ، وجعل
يتصور موضع الشقة التى أشار إليها الرجل ، ثم تقدم نحو الباب الذى فى
الوسط وضغط الجرس وقد بدأ يستشعر رهبة تمنى فى أوصله .

وفتح الباب ونظرت إليه فتاة إيطالية وقالت :

— سى .

— سنيوريتا ناهد .

وراحت تتحدث بالإيطالية ، وفهم من حديثها أن ناهد فى « الكافيه
دى بارى » ، وكأنما أراد أن يتأكد فقال :

— كافيه دى بارى ؟

ف قالت وهى تهز رأسها موافقة :

— كافيه دى بارى .

وانطلق التاكسى به إلى كافيه دى بارى . وكانت الساعة تجاوزت
الخامسة ، والحياة بدأت تدب فى المقاهى القائمة على جانبى فيافينيتوا .
ووقفت السيارة أمام المقهى فإذا بقشعريرة تسرى فى بدنه ، وإذا برهبة
(ليلة عاصفة)

تنتشر في أرجائه ، وإذا بدقات قلبه تتزايد ونظراته لا تعرف الاستقرار .
وسار بين صفى المقاعد المنتشرة على طول الإفريز وهو يتفرس في
الوجوه . كان يتقدم كالمأخوذ ، أو كالسائر في حلم من الأحلام ، لا
يكاد يحس وجوده ، ولا يكاد ينكر نفسه .

ودوى قلبه بين جنباته ، وتدفقت دماؤه حارة في عروقه ، وجمد في
مكانه وقد اتسعت عيناه ، إنها هي ، ناهد حبيبة الفؤاد ، لا يفصل بينه
وبينها إلا خطوات .

وكاد يهتف باسمها ، وكاد يجري إليها ، ولكنه جمع أطراف نفسه
المشتتة ، وراح يتقدم في تؤدة ، وإن كانت كل إحساساته قد حطمت
أغلاها .

ووقف أمامها ولم يجد لسانه وإن ترقق الدمع في مقلتيه ، ورفعت
رأسها تنظر ، ولم تصدق عينيها ، ولكن سرعان ما هتفت :
— طاهر .. طاهر ..

وهبت واقفة وطوقته بذراعيها وراحت تقبله في وله وسعار ، وهو
يضمها إليه وقد انمحق الوجود كله إلا وجودهما . كان هو وهى الدنيا
بكل ما فيها من مشاعر وأحاسيس وخلجات .

وأبعدته عنها ونظرت إليه كأنما تتحقق من أن ما تحسه حقيقة وليس
وهما من تهاويل الخيال ، ثم عادت تضمه إلى صدرها دامعة العين .
وجلست وهى تجذبه من يده ، فجلس ، ونظرت إليه طويلا ثم
قالت :

— ١٩ —

— أنت هنا . لا أستطيع أن أصدق . متى جئت ؟ وما الذى جاء بك ؟ وكيف أنت ؟ وكيف عرفت أنى هنا ؟
— فقال وقد وضع يده على المنضدة :
— جئت الآن ، وسألت عن عنوانك فى المركز الثقافى ، وها أنا ذا هنا .

ومدت يدها وجعلت تمرر أناملها فى رقة بين أصابعه ، فأحس كأن يدا حنوننا تهدد روحه ، فاستكان فى لذة . وراحا يتحدثان ويهيمان فى عوالم مفعمة بالركة والحب والصفاء .
قالت وهى تنظر فى عينيه :

— لم تقل لى : ما الذى جاء بك ؟
— أنت . لا أستطيع أن أعيش وأنت بعيدة عنى ، لابد أن نتزوج !
ولن أنتظر حتى نعود إلى مصر . بل سنتزوج هنا فى القنصلية ونمضى شهر العسل فى الريف الإيطالى .

ومالت برأسها حتى التصق جبينها بجبينه وقالت :
— ليتك تعرف كم أنا فى حاجة إليك !
وجعللا يهمسان ويتناجيان ، ثم قالت :
— وأين حقائبك ؟

— فى مكتب شركة الطيران ، لم أبحث عن فندق بعد .
فقالته وهى تضحك :

— فندق ؟ لن تبئت إلا عندى . هيا .

— ٢٠ —

وحملا حقاثة وذها إلى البيت وهى تدور فى أرجائه من الفرأ
كفراشة ، وتغنى أغنية إيطالية دافئة تعبر عن الأحاسيس الفوارة التى تمر
فى أعماقها ، وكانت تضمه وتقبله ، ثم تضمه وتقبله ، وقالت :
— ما رأيك فى كأسين من النبذ الإيطالى ؟

ولم تنتظر جوابه ، بل ذهبت وعادت بصينية صغيرة فوقها كأسان
وزجاجة وجعلت تصب النبذ وهى تنظر إليه فى وله وكأنما تذكرت
شيئا فانها فقالت :

— ألا تخلع هذه الثياب وتستريح ؟

وهمت بأن تنهض تعاونه على رص ملابسها فى الصوان القريب من
السريـر ، ولكنه التمس منها أن تستمر فيما هى فيه وأن تترك هذا الأمر .
وفتح الصوان ، وإذا به يجمد فى مكانه لا يريم ... وجد فيه بيجامة
رجل . وتحركت غيرته وانسدلت غشاوة على عينيه ، وهجمت جيوش
القلق والغضب والمقت تعمل أسلحتها الفتاكة فى صدره .

كان على وشك أن يخلع جاكته ، ولكنه أعادها كما كانت . وفطنت
ناهد إلى ما اعتراه من تبدل ، فمدت بصرها ورأت البيجامة ، ولم
تفرع ، بل قامت إليه فى هدوء وقالت دون أن تضطرب :

— لابد أن تعرف كل شيء ما دمت قد جئت لتتزوجنى .

وجلسـت على طرف السريـر وراحت تقص عليه قصتها ، قالت :
— جئت إلى روما وحدى ، وعشت مع زميلائى الإيطاليات لا

أختلط بهن إلا في ساعات الدرس ثم أعود إلى بيتي ، كان الملل يستبد بي ولكنني كنت أقاومه . وتفتحت عيناى على الرغم منى على دنيا جديدة تختلف عن الدنيا التي عشنا فيها . كانت كل فتاة تتحدث عن فتاها ، عن ساعات الصفو التي قضياها .

ومرت سنتان طويلتان مريرتان وأنا أقاوم الإغراء الذى يحيط بي ، وإن كانت نفسى تهفو إلى ما أسمع منه في الصباح وفي المساء . إننى بشر ، من دم ولحم ، رغباتى ترهقنى ، تستبد بي ، تكاد توردنى موارد الهلاك .

وذات ليلة دعتنى إحدى زميلاتي إلى حفل خاص في بيتها وذهبت ولم يكن هناك إلا أنا وهى وشابان أجنبيان حضرا إلى روما في رحلة . وقدمت إلينا الببند ، ودار رأسى ولم أشعر إلا وأنا في الصباح في فراش واحد مع أحد الشابين ، وقد انتهى كل شيء .
لم يعد هناك ما أخشى عليه ..

وصاح كوحش جريح :

— اسكتى .. اسكتى .

— بل لابد أن تسمع قصتى ، إنك لا تعرف كم أحس بالراحة الآن وأنا أرفع هذه الأثقال التي جثمت على صدرى سنة .. سنة كاملة انقضت وأنا أتعدب وحدى ، لا أجد من أفضى إليه بمتابعى .. لم يعد هناك ما أخشى عليه ، انتهى الأمر وأصبحت كزميلاتي ، أصادق هذا مدة حتى إذا سئمتنى أو سمته بحثت عن آخر .

— ٢٢ —

وهويت ، ولكننى لم أكن راضية عن الحضيض الذى وصلت إليه ،
كنت أحتقر نفسى ، أتلقت باحثة عن الخلاص ، وجاء إلىّ يعرض علىّ
أن ينتشلى .

— من ؟

— صاحب هذه البيجاما .

— من هو ؟

— شاب مصرى .

— طالب ؟

— لا . إنه يعمل هنا فى وظيفة متواضعة .

واتجه طاهر إلى حقائبه يحملها وهو مطرق . والتفت إليه وقالت :

— ذاهب ؟

— نعم .

— لماذا ؟

— لأننى لا أستطيع أن أتصور أن التى سأ تزوجها كانت تنتقل يوما

بين أحضان الرجال .

— طاهر .. ابق .. أرجوك ، إننى فى حاجة إليك لا تتركنى ، بربك

لا تتركنى .

— محال .

وهبت واقفة وقالت :

— إذا كنت وصلت إلى هذا فأنت السبب ، إننى ضحيتك ..

ضحيتك أنت ..

ووضع يده في جيبه وأخرج كل ما معه من نقود ووضعها على نضد قريب منه ، ورأت النقود من خلال الدموع التي ملأت عينها فصاحت فيه :
— إن كنت ذاهبا فخذ نقودك ، لا أريد منك شيئا ، لماذا جئت ؟
أجئت تنكأ جروح نفسي التي اندملت ؟ أجئت تهتك أكفان الماضي ؟
أجئت توقظ ما غفا مني ؟ أجئت تغريني بأن أشن حربا هوجاء على ذاتي ؟ أن أعذب روحي ؟ ليتك ما جئت ، وليت شمس ذلك اليوم الذي عرفتك فيه ما أشرفت، وليت قلبي قد خرس قبل أن يخفق بجبك .
اخرج .. اخرج .

وفتح الباب في رفق وانسل خارجا وهو مطرق ، ثم عاد وأغلق الباب ، وارتمت ناهد في الفراش تضربه بيدها في شدة وتبكي وتنتحب .

وفي صباح اليوم التالي كان طاهر في مطار شيامبينو ينتظر الطائرة القادمة من زيورخ لتحمله إلى مصر ، وهو مطرق تكاد نياط قلبه تتمزق حزنا وأسى، فقد كان عائدا من مأتم حبه .

مسك كاريكاري

كانوا في بعثة تجارية تجوب غرب أفريقية ، وراحوا ينتقلون من دولة إلى دولة دون أن يحسوا تغيرا في الناس أو في حياتهم الاجتماعية، أو في العواصم التي كانوا ينزلون بها . كانوا يهبطون في أحد المطارات ، ثم يستقلون بعض السيارات إلى الفندق الأوروي الفاخر الذي يشرف على الطرقات المرصوفة المحترقة قلب الغابة الخضراء ومن ثم يتصلون بكبار التجار من الأجانب . فإذا ما جن الليل انطلقوا إلى ملهى ليلي ، يسمعون موسيقى الجاز ، ويشاهدون الرقص الذي كان يعيد إلى أذهانهم الحركات الهستيرية التي تمارس في حلقات الزار : ويتسلون أحيانا بعد مئات زجاجات البيرة والوسكى التي تخرج من البار .

ووصلوا إلى الردهة الداخلية في أحد الفنادق ، فإذا بتجار سورين ولبنانيين يخفون إليهم ويرحبون بهم :

— يا هلا .. يا هلا . أهلين وسهلين . مرحبا بروائح مصرنا العزيزة .

وقام عدنان الذي كان في استقبالهم في المطار بتعريف أعضاء البعثة

بإخوانهم من التجار السوريين واللبنانيين ، كان الود الصادق يلوح في وجوههم ، ويتدفق عبارات حارة على ألسنتهم .
وراحوا يتبادلون الأحاديث ويعبرون عن الآمال الجياشة في الصدور ، وقال قائل :

— أظن السادة أعضاء البعثة في حاجة إلى أن يستريحوا الآن .
وقام ، وإذا بالآخرين يقومون مستأذنين ، ولم يبق مع القادمين إلا عدنان ، انتظر حتى يطمئن إلى حسن تحقيق رغباتهم .
واتجهوا إلى مكتب الاستقبال ، وكانت المنضدة العالية التي تمثل قطاعا في دائرة يجلس إليها ثلاث فتيات : اثنتان من الوطنيات ترتديان البياض ، والثالثة خمرة اللون ، شعرها أسود فاحم لم تقصه كالأخريات ولم ترسله إرسالا ، بل كان بين بين ، وقد لفت سوافها على شكل هلال ، وكانت عيناها كزيتونتين لامعتين في وسط بياض ، ترتدى ثوبا بسيطا أنيقا يكشف ذراعيها الملفوفتين ، وعقدها الطويل ، وجزءا من صدرها الشاخن .

وراح أعضاء البعثة ينظرون إليها ويتلفت بعضهم إلى بعض وفي عيونهم تعبير واحد ، كان حسنى أول من ترجمه إلى ألفاظ ، قال في دهش :

— لكأنها مصرية .

وتناولت الفتاة جوازات سفرهم وراحت تملأ البيانات في الدفتر الكبير المفتوح أمامها ، ثم قالت دون أن ترفع رأسها :

— مفتاح ٢٤٠ ، مفتاح ٢٤٥ ، مفتاح ..

وأسرعت إليها إحدى الفتاتين الوطنيتين بما طلبت وهي تقول :

— تفضلي مس كاريكاري .

وتناول حسنى مفتاح غرفته وقال وهو يبتسم :

— متشكر مس كاريكاري .

وذهب إلى المصعد ، ثم اتجه إلى غرفته وتمدد في السرير بملابسه ،
وشرد ذهنه يفكر فيما شاهده في البلاد التي مر بها ، فألقى حياته فيها
جفافا ، لم تتخللها لحظة نابضة إلا مرة واحدة ، يوم كان يكتب تقريرا ،
واستأذنت الخادمة السوداء أن يسمح لها بتنسيق الغرفة ، وهم بأن
يتركها لها حتى تنتهى منها ، ولكنها قالت له :

— استمر في عملك يا مستر .. سأنسقها وأنت في مكانك .

وراحت تعيد تنسيق السرير وظهرها قريب من كتفه ، وانقطعت
سلسلة أفكاره فلم يستطع أن يستأنف ما كان فيه ، وقرر أن يستريح حتى
تخرج تلك التي اقتحمت عليه خلوته .

وخطر له أن يداعبها فقال :

— متزوجة ؟

ف قالت وقد استدارت له ، ولاحظت أسنانها البيضاء في رقعة وجهها

كهلال أبيض رسم على لوحة سوداء :

— لا ، ولكننى سأزوجك أنت ؟

واستمر في دعابته :

— متى ؟

— غدا .

— لماذا غدا ؟

— لأن إجازتي غدا وأستطيع أن أتفرغ لك .

وضربت له موعدا ، ولكنه لم يذهب ، فجاءت في صبيحة اليوم التالي تقرر عليه بابه وتعاتبه لأنه تسبب في ضياع يوم من أيام إجازتها . كان هذا هو كل ما استروحه في الشهر الطويل الذي مر عليه مذ غادر القاهرة إلى لحظته هذه ، إنه متعطش إلى الحب ، ظمآن إلى الحنان . وألقى طيف كاريكاري يزوره ، ودبت في أوصاله حياة ، وراحت نفسه تغريه بالهبوط إلى مكتب الاستقبال والتحدث إليها ؛ فإن من الحديث ما يحى القلوب ، ويشحذ النفوس الصدئة ، ويفتح عوالم حبيبة من الآمال .

واتجه إلى المصعد ثم نزل ، وما أن خرج منه حتى ألقى نفسه أمامها وجها لوجه ، فابتسم وقدم إليها المفتاح ، وهم أن يلقي أول طرف من أطراف الحديث وإذا به يفاجأ بإقبال زملائه ووقفوا جميعا ينظرون إليها ويتحدثون بالعربية ، وقال لها حسنى :

— لا تعجبي إذا أطلوا النظر إليك . إنهم لا يستطيعون أن يرفعوا عيونهم عنك لأنك تذكرينهم ببلادهم . ألم يقل لك أحد من قبل إنك مصرية ؟

فقالت وهي تبتسم :

— لقد حدث .

— أين ؟

— فى أسبانيا .

— ومن ذا الذى قال لك ؟

— صديق مصرى تعرفت به هناك .

وقال حسنى وهو يرنو إليها من طرف عينه :

— وما رأيك فيه ؟

فقالت وهى تضحك :

— كان مدهشا .

ولم تكن ضحكاتها صافية .. كانت فيها ظلال من أسى ، وتشوب وجهها الخمرى مسحة من حزن ، ويلوح فى عينها شجن .

ومرت أيام وأعضاء البعثة يتوددون إليها ، وحسنى يختلس لحظات يقضيها فى الحديث معها ، وكانت تلك اللحظات أشهى لحظات يومه ، ودار بخلده مرة أن يدعوها للخروج معه ، ولكن خائنه شجاعته .

وذات صباح هبط إلى مكتب الاستقبال وقد تأهب لمداعبة مس كاريكارى ولكنه لم يجدها ، فذهب إلى قاعة الطعام وتناول إفطاره وعاد يتلفت فلم يجدها ، واتجه إلى البار وراح يجوس خلال المقاعد ثم جلس يمضى بعض وقته مع نفسه . وعاد إلى مكتب الاستقبال ينقب عنها فلم يعثر لها على أثر ، واقترب من إحدى الفتاتين اللتين تعاونانها وقال :

— أين مس كاريكارى اليوم ؟

— ٢٩ —

- مريضة في حجرتها .
- وكيف أتصل بها ؟
- حجرتها رقم ٤٤٠ .
- وعاد إلى غرفته وطلب غرفتها بالتليفون :
- ألو مس كاريكاري ، كيف حالك ؟
- متوعةكة قليلا ، وشكرا لك .
- إننى أحسن كأن شيئا هاما ينقص حياتى لأننى لم أرك اليوم .
- شكرا ، ولكن من المتكلم ؟
- معجب .
- بالله قل من ؟
- صمتت قليلا ثم قالت :
- أحد المصريين من أعضاء البعثة .
- برافو ، ولكن من على التحديد ؟
- ألا تعرفين ؟ خمّنى .
- لا أعرف . قل أنت .
- قولى أنت : من منهم تفضلين ؟
- كلهم ظرفاء وقد أحببتهم جميعا ، كانوا معى كيسين .
- ولكن لا بد أن أحدهم أقرب إلى قلبك من الآخرين .
- كلهم فى الحب سواء .
- وهل سأسعد برؤيتك فى المساء ؟
- لا أستطيع أن غادر الفراش اليوم .

— ٣٠ —

- وهل أستطيع أن أزورك في غرفتك ؟
— شكرا لك . لا أحب أن يراى أحد في لحظات ضعفى .
— وهل سأراك غدا ؟
— غدا سأعود إلى عملى .
— وأنا أدعوك للعشاء معى غدا احتفالا بشفائك . اتفقنا ؟
فقلت وهى تضحك :
— اتفقنا .

ومر اليوم ، وأقبل اليوم التالى ، وخف حسنى إلى مكتب الاستقبال ورأى مس كاريكارى تباشر عملها ، فأشرق وجهه بابتسامة ، ولاحت تلك الفرجة الجميلة بين سنيه الأماميتين ، التى كانت مس كاريكارى تحس الراحة تندس إلى جوفها وهى تديم النظر إليها .

- قال فى انشراح :
— حمدا لله على سلامتك .
— شكرا لك .
ومال نحوها وقال :
— اتفقنا . أنت ضيفتى الليلة .
فقلت فى رضا :
— أكان أنت ؟
— نعم . هل خاب ظنك ؟
فهزت رأسها فى عتاب وقالت :

— أبدا .

ورنت إليه رنوة عذبة عرفت طريقها إلى قلبه .

وراح حسنى يدبر لقاء المساء ، فقد دعاها وقبلت دعوته . وهو لا يدرى أين يذهب بها ، إنه يجوس خلال المدينة فى سيارة لا يكاد يتبين معالمها . وجاء عدنان ليصحب الوفد فى طوافه اليومى فأسرع حسنى إليه وقال :

— دعوت مس كارىكارى للعشاء الليلة ، ولا أدرى أين نذهب .
فهل لك أن تتكرم بإرشادى إلى مكان يليق بها ؟
فابتسم عدنان وقال :

— لا يوجد مكان يصلح للعشاء إلا الفندق ، أو بيت من بيوت الأصدقاء .. إن بيتى تحت أمرك ، وسأخبر الطاهى أن يعد العشاء لائنين .

— شكرا .. شكرا ، إننى أريد مكانا عاما .

— ليس لك الخيار ، فليس فى المدينة كلها مطعم واحد غير الفنادق ،
وبيتى بيتك .

— لو كنت أعرف ذلك ما دعوتها .

فقال عدنان فى حدة :

— « يا عيب الشوم » ، إن عدت إلى مثل هذا القول فسأغضب .

— إذن قل للطاهى أن يعد طعاما لثلاثة ، فما بينى وبينها ما أخفيه

عنك .

— ٣٢ —

وجاءت سيارة عدنان في المساء وحملتهما إلى البيت ، ووقف عدنان
يقدم لهما المشروبات بنفسه :
— كونيـاك ؟ وسكى ؟
فـقالت مس كاريكارى :
— كونيـاك .

وقال حسنى وقد انفـرجت شفتاه عن الفـرجة التى بين سنيه
الأمـاميتين :

— وسكى وقليل من الصودا .
ونظر حسنى إلى الفتاة نظرة طويلة ، إنها لا تتجاوز الثامنة عشرة ،
إنها فى عمر الورود ، فما بال ذلك النقاب الخفيف من الحزن ينسدل على
روحها .. ومتى غلفها ؟

ولم يسترسل فى التفكير طويلا وقال :
— والله كلما نظرت إليك أحسست أنك مصرية .
فـقالت مس كاريكارى وهى تزفر نفـسا فى صوت مسموع :
— ليتنى كنت مصرية .
— أـتـمـنـين أن تكون مصرية ؟
— أـتـمـنى أن أكون أى شىء .

— ولكنك فعلا .. شىء .. شىء جميل .
— إننى لا شىء .. لا شىء على الإطلاق .
وأفرغت كأسها فى جوفها وقالت :

— أمى وطنية وأبى إنجليزى ، تزوجا عن حب ، وكنت أنا ثمرة هذا الزواج . ومنذ أن تفتحت عيناى على الحياة وأنا أفاسى من رفيقاتى الوطنيات ، كن يعاملننى على أننى أجنبية ، دخيلة عليهن ، وقد حاولت مرات أن أفتح قلوبهن لى بالتودد إليهن ، والاندماج فيهن ، وممارسة كل ما يمارسن من أعمال ، ولكننى أخفقت وباءت كل محاولاتى بالانحدار .. كن ينظاهرن بمحبتى ، ولكنهن كن يعتقدن فى أعماقهن أننى لست أصيلة مثلهن .

واشتد عودى ، وسافرت إلى لندن مرة مع أبى ، وهناك كان الجميع يظهرن الود لى ، ولكن تصرفاتهم معى كانت تصرخ بأعلى صوت أننى أجنبية ، أننى لست منهم ، وراح بعض الشبان يتوددون لى ، لا لأنهم أحسوا نحوى حبا أو تعاطفا أو انجذابا ، بل لأنهم عرفوا أننى مولدة ، وأن لى أصول .. ودفعهم حب الاستطلاع فقط إلى محاولة تذوق نكهتى الخاصة .

إننى غريبة هنا .. غريبة هناك ، غريبة فى كل مكان . حتى إننى أكاد أنكر نفسى أحيانا ، فعواطفى مشتتة ، لا هى عواطف وطنية ، ولا هى عواطف بريطانية ، إننى حائرة ، تائهة فى هذا الوجود ، لا أعرف ماذا أعتقد ولأى شىء أتحمس . إننى لا بد أن أومن بشىء ، ولكن هذا الشىء لا أستطيع أن أجده ، أبى مؤمن بإله ومؤمن بوطن ، وأمى مؤمنة بإله ومؤمنة بوطن ، وأنا لا أدرى أأومن بإله أبى أم بإله أمى ؟ . أأومن بوطن أبى أم بوطن أمى ، وإذا ثار وطن أمى على وطن أبى مرة ، فلمن أنضم ومن أخون ؟

(ليلة عاصفة)

وحسنى يصغى إليها ، وعدنان بعيدا يعد المائدة :
 — أحيانا تراودنى أفكار بشعة مدمرة أفرع منها ، ولكنى أخشى أن
 تكون نهاية مطافى ، توسوس نفسى أحيانا أن أكفر بإله أبى وإله أُمى ،
 وأكفر بوطن أبى ووطن أُمى ، وأؤمن بشىء واحد : بنفسى ، ولا شىء
 غير نفسى ، أعيش لها ، أمنحها كل ما فى هذا الوجود من لذات .
 حياة أقرب إلى حياة السائمة ، ولكنها الحياة التى تلوح لى فى مستقبل
 الذى تراكمت فى طريقه ظلمات فوقها ظلمات .

والتفتت إليه وقالت :

— آسفة ، قد أثقلت عليك ، وما دعوتنى إلا لتقضى ساعة مفعمة
 بالمتعة .

— إنها متعة لنفسى أن أظل أصغى إليك .

فقالت وهى تنظر إليه فى ود :

— لا يفضى الإنسان بمكنون صدره إلى إنسان إلا إذا أحس نحوه
 عاطفة ما ، لا أقول عاطفة حب ، بل عاطفة طيبة على أية حال .

وجاء عدنان ودعاها إلى الطعام ، وظلوا يتسامرون ويسمعون
 موسيقى عربية وموسيقى وطنية وموسيقى غربية حتى انتصف الليل ،
 وقاما منصرفين والتفتت مس كاريكارى إلى حسنى وقالت :

— لقد قبلت دعوتك الليلة ، فهل تسمح لى أن أدعوك للعشاء معى

غدا ؟

— كنت سأدعوك .

— ٣٥ —

— بالله أقبل دعوتي ، فإن ذلك يجعلني أحس أن لي كيانا ، أنني شيء
يستطيع أن يدعو وأن تقبل دعوته .
— يشرفني أن أقبل هذه الدعوة .
فقلت في ابتهاج :
— شكرا .

وأَمْضيا سهرتهما معا ، وفي طريق العودة لف حسنى ذراعه حولها
وضمها إليه ومال ليقبلها ، فقلت في توسل :
— بالله لا تفعل معي ما يحاول أن يفعله الآخرون ، إن ذلك يجعلني
أحس أنني أؤخذ أخذا وأننى لا أستطيع أن أعطى بمحض اختياري ، هل
تعذني ألا تحاول اغتصاب شيء منى .
— أعدك .

— وأن تتزكني حرة في اختيار ما أريده ، ومنع ما أريد منحه
باخباري ؟ . إننى أريد أن أحس أنني شيء يستطيع أن يعطى إذا أراد أن
يعطى ، وأن يمنع إذا أراد يمنع ، وأن يأخذ إذا أراد أن يأخذ . إن ذلك
يمنحني بعض الثقة في نفسى ، ويجعل نفسى تحترم ذاتى ، فإن أبشع ما في
الوجود أن تحتقر النفس نفسها ، فهل تعاوننى ؟
— أعدك .

وراحت الأيام تمر وحسنى ومس كاريكاري لا يفترقان . وذات يوم
جاء حسنى إليها في الصباح وقال :
— لا بد أن أقابلك اليوم .

— سأقابلك في المساء .

— ولكننا سنسافر هذه الليلة .

— سأنتهى من عملى فى الثانية ، أستطيع أن أقابلك بعد ذلك .

وذهب إلى بيت عدنان وراحا يتناولان الطعام معا ، وأستاذ عدنان فى الانصراف لمباشرة بعض أعماله .

وانبعثت الموسيقى من البيك آب ، وتقدمت مس كاريكارى إلى حسنى تطلب منه أن يراقصها ، وقاما يرقصان ، ومالت برأسها إليه وأسندته إلى صدره ، وراحت تضمه ، ثم جعلت تقبله فى وله ، ومنحته كل شىء .

ونظرت إليه والسعادة تترقرق فى عينيها وقالت :

— كم أنا سعيدة اليوم لأننى منحت ما أريد منحه بمحض اختيارى ، ولم أغتصب غصبا ، أشكرك ، أشكرك لأنك منحتنى كل هذه السعادة ، وكل هذا الرضا المنتشر بين جوانحى .

وقامت متطلقة الحيا وقالت :

— أشكرك ، لأنك عاونتنى على أن أجد نفسى .

ولم يدر فى خلدها فى تلك اللحظة أنها بدأت أول خطوة فى طريق الكفر بإله أبيها وإله أمها ، وبوطن أبيها ووطن أمها ، وأنها خطت السطر الأول فى كتاب الإيمان بشىء واحد ، بنفسها ولا شىء غير نفسها .
وذهب فى المساء لتوديعها ، مد إليها يديه الاثنتين فوضعت كفيها فى كفيه وقالت :

— ٣٧ —

— يحز في نفسي رحيلك ، ولكنتى لن أبكى ، فقد تعودت هنا أن ألقى أناسا وأودع آخرين ، ولكنك لست كالقادمين ولست كالمسافرين ، لقد كنت شيئا هاما في حياتى ، التقى بى عند مفترق الطرق ، وقد عاوننى على أن أسير فى الطريق الذى اخترته بمحض إرادتى ، دون إغراء أو تأثير .

كل ما أستطيع أن أقوله لك أننى سأذكرك دوما ، وسأذكر بالغبطة اللبلى السعيدة التى قضيناها معا .

فقال حسنى فى صوت متهدج :

— وأنا لن أنساك ما حييت .

وسار وهو مقعم بالمشاعر والأحاسيس ، لا يلوى على شيء ، ولا يلتفت خلفه .

محمدر في الشبونة

ودخل البهو الخارجى لفندق إمباسادور فى أكرا ثلاثة ، جعلوا يغدون ويروحون ، وبعض الشبان المصريين الجالسين حول مائدة فى جناح مكشوف من الفندق يرقبونهم ويتسمون . كان الثلاثة لبنانيا وأمريكا وثالثا لا تعرف جنسيته على التحديد ، وكان ظهورهم فى الفندق دليلا على هبوط طائرة فى المطار أو قرب سفر طائرة . فقد كان دأهم أن ينتظروا إقبال المضيفات القاديات أو يودعوا مضيفات انتهت ليلة إقامتهن فى أكرا . وقد أطلق عليهم المصريون هناك : « هيئة المتفحين بالمضيفات » .

دخل اللبناى الجناح المكشوف ، وراح يجوس خلال المقاعد والمناضد وهو يتلفت وقد وضع يديه فى وسطه ، ولح المصريون فحياهم ، ووقع بصره على محمود فقال له :

— مسافر الليلة على بان أمريكان ؟

— نعم .

— إذن سأوصى عليك صديقتى .

— شكرا ، وأرجو ألا تفعل .

— لماذا ؟

— لأننى لا أحب أن يوصى علىّ أحد ، إننى أعرف كيف أشق طريقى .

وابتسم اللبناى ابتسامة باهتة ، وإن كانت النظرة التى رمى بها محمود تصرخ فيه قائلة : أنت مغرور .

كان محمود أسمر الوجه ، غزير الشعر ، واسع العينين ، فى الخامسة والثلاثين ، يمتاز بجرة نادرة ، وروح خفيفة جذابة ، وكان يحس تفتحا وانطلاقا إذا تحدث إلى فتاة أو امرأة أو حتى إلى سيدة عجوز ، كان يجد لذة فى مداعبة الجنس الآخر ، وما كان حديثه معه إلا مداعبات .

وغادر المصريون الفندق إلى ملهى لشبونة القريب من المطار ، فقد قرروا أن يقضوا ليلتهم هناك ، حتى إذا حان سفر محمود ودعوه وعادوا إلى دورهم .

ومر الوقت فى سرد نوادر وضحك وشراب ، ومشاهدة الراقصين والراقصات ، والاستماع إلى موسيقى الجاز الصاخبة حيناً والإعراض عنها حيناً . وانتصف الليل وقام محمود يودع إخواته ، ثم ذهب إلى المطار .

وفى الواحدة والنصف صباحا طارت الطائرة ، ووجد محمود نفسه فى مكان قريب من بابها ، فيه البوفيه وصفان من المقاعد يمين وشمال ، وستارة تفصل المكان عن مقدمة الطائرة ، وستارة أخرى تفصله عن

دثر خرها ، ولم يكن في المكان إلا هو والمضيفات الثلاث .
 وتمدد محمود في مقعده ، وطاقفت بذنه صورة رجال « هيئة المنتفعين
 بالمضيفات » فرقت على شفثيه بسمه ، وراح يتفرس في المضيفات اللاتي
 كن يرتدين لبس الطيران السماوى وجوارب النايلون وأحذية خفيفة من
 جلد أسود ، فألقى إحداهن ذات شعر أحمر تركته مسترسلا . لم تكن
 فى مستهل حياتها ، إنما كانت تتأرجح حول الثلاثين ، وكانت الثانية
 شقراء ذات عيين زرقاوين ، طلّت شفثيها بروج فاتح يميل إلى الزرقة ،
 أما الثالثة فكانت فى الثامنة عشرة ، مشدودة الصدر ، تلتفت كالأطفال ،
 وإن كانت تحاكي مملثات السينا فى مشيتها .

ومشى الوسن إلى عيني محمود وما كاد ينعم بلدته حتى استيقظ على
 لمس يد ليده ، وفتح عينيه فوجد المضيضة ذات الشعر الأحمر تقول :

— قهوة أم شاي ، أم تريد أن تتناول شيئا ؟

وقال دون تفكير :

— شاي .

وطار النوم من عينيه على الرغم من الإرهاق الذى كان يحسه ، فهو إذا
 أغفى لحظات ثم استيقظ فقلما يعرف النوم طريقه إلى عينيه تلك الليلة .
 وجاءت ووضعت فى حجره وسادة ، ثم وضعت فوقها صينية
 الشاي ، وجعل يشرب ، وأخذ الباب الفاصل بينه وبين مقدمة الطائرة
 يفتح ويغلق وتدخل منه المضيفات حاملات الصواني أو يعدن ليستأنفن
 عملهن .

وبدأ السكون يخيم على الطائفة ، وانسحبت مضيفتان لتتمددا في مقعدين خاليين في المقدمة ، وبقيت المضيفة ذات الشعر الذهبى عند البوفيه تنجز بعض أعمالها .

ومرت بمحمود وفتحت الباب ثم أغلقتها ، ثم عادت وفتحت الباب ثم أغلقتها ، ووجدت محمود مستيقظا فقالت له :

— أظن من الأفضل أن تنتقل إلى المقعد الداخلى حتى لا يضايقك فتح الباب وإغلاقه .

وانتقل إلى المقعد الداخلى وقالت :

— انتظر حتى أزيل هذا المسند حتى لا يضايقك فى نومك .

وراحت تعالج المسند الفاصل بين المقعدين ، ومد يده وهو يتظاهر بمعاونتها وراح يمرر يده على يدها ، وغاص المسند فى الفراغ الكائن بين المقعدين ، وانتصبت المضيفة قائمة وهى تقول :

— سرير مريح .. نعم .

فقال وهو يرنو إليها رنوة خاصة :

— أصبح سريرا لاثنين .

وابتسمت ثم انسحبت إلى مقعد مرتفع أمام البوفيه ، وأضاءت نورا خلفها وأخذت تقرأ فى كتاب .

وجعل محمود يتململ فى رقدته ، ثم قام وأخذ يتمطى ، ثم عاد لينام .. ولكن النوم لم يعرف طريقه إلى جفنيه .

ولمحته وقالت له :

— ٤٢ —

— ألا تنام ؟ من المخجل ألا تنام ، فمعنى هذا أن خدمتنا ليست جيدة .

فقالت وقد التقت عيناه بعينيها :

— لم أعتد أن أنام وحدى .

فالتمعت عيناها ببريق خاطف ، ورمته بنظرة دلال تقول :
« وبعدين » . وعادت إلى مكانها تستأنف قراءتها ، وعجزت عن أن
تركز نفسها فيما تقرأ ، بل راحت ترمقه بطرف عينا ، ووجدته يتململ
ويتلفت فذهبت إليه وقالت :

— تريد شيئا ؟

— نعم .

— ماذا ؟

— أنت .

ووقفت تنظر إليه ولم تحتلج فيه خلجة اضطراب ، بل قال في
بساطة :

— أأنت ضيفك الليلة ؟

— نعم .

— أليس لي حق الضيف على مضيفه ؟ لقد ضايقتني وحدتي ، أريد
أن أتسامر .

وأشار لها إلى المقعد الخالي إلى جواره وقال :

— تفضلي .

— ٤٣ —

— لا أستطيع أن أترك مكانى .

— لا بأس ، آتى أنا إليك .

وذهبت إلى مكانها ، وذهب خلفها وجلس إلى جوارها وقال :

— من نيويورك ؟

— نعم . وأنت ؟

— مصرى .

فقلت فى فرح :

— أوه .

— هل سبق لك أن زرت مصر ؟

— أبدا .

— ولكن « أوه » هذه التى قلتها تدل على أن لك معرفة بها .

— لى صلة بأحد أبنائها .

— فى أكرا ؟

— لا ، فى لشبونة . إنه صديقى هناك .

فقال وهو يتظاهر بالضيق :

— لبنانى فى أكرا ومصرى فى لشبونة ، والمسافرون ليس لهم نصيب .

فقلت وهى تضحك :

— ألا يكفيهم خدمتى لهم فى الطريق ؟

— لو خيروا لاختاروا أن يخدموك ..

وصمت قليلا ثم قال :

— ٤٤ —

- لبناني . مصري . ألا يوجد في جياتك عراقى أو سورى ؟
— عرفت سعوديا مرة .
قليل من الرحلات في الشرق وتصبحين جامعة عربية .
— وكيف عرفت أن لى صديقا لبنانيا في أكرا ؟
— رأيت ذلك بعينى ، إننى صحفى .. أدرس أنفى في كل شىء .
— وما الذى جاء بك إلى غانا ؟
— أدرس الاتجاهات السياسية في هذه المنطقة .
— إذا أردت أن تحافظ على صلات الود بينك وبين أصدقائك فلا
تناقشهم في السياسة ولا تناقشهم في الدين .
— كيف لا أتناقش في السياسة وهذه مهنتى ؟
فقالت وهى تبسم :
— لا تناقش فيها معنى على الأقل .
— أوه . وهل عندى وقت أضيعه في مهارات .
وغمغم ببعض ألفاظ ، فمالت وهى تدنى أذنها منه ، وألقى خدها
مكشوبا فطبع عليه قبلة .
وأشرق وجهها سرورا ، وقالت وهى تضحك :
— لو أرسلت مصر إلى أمريكا ألف شاب مثلك لكسبت صداقتها .
— ستكسب صداقة النساء فقط .
— لا تنس أن خلف كل رجل امرأة .
— تقصدين : خلف كل عشرة رجال امرأة .

— ٤٥ —

ونظرت إليه نظرة دلال تقول : « وبعدين » ، وقال :
— هذه نسبة متواضعة .

فقالت في جد :

— تنفقون أموالا طائلة في دعاية لا أثر لها ، أما هؤلاء الشبان
فسيقومون بدعاية ليس من السهل أن تنسى .
فقال ساخرا :

— أثرها باق ، يتغلغل في الحشا .

وأراد أن ينهى هذا الحديث لينتقل إلى حديث آخر ، فقال :

— سأبلغ حكومتى رأيك هذا ، وأين تنزلين في لشبونة ؟
— عند صديقى .

— وأنا ؟

— ستنزل في فندق كوندستافيل .

— لا يهمنى أن أنزل في كوندستافيل أو في أى فندق آخر ، عندنا مثل

يقول : سل عن الرفيق قبل الطريق ، وأنا أطبقه الآن . أسأل عن الرفيق

قبل الفندق ، هل انتزعت الإنسانية من قلبك ؟

— لماذا ؟

— لتركينى ليلتين مؤرقا ؟

— وما الذى يؤرقك ؟

— ألم أقل لك إننى لم أعتد النوم وحدى .

— لو لم يكن صديقى مصريا لقدمتك إليه . أنت تعرف .

— ٤٦ —

فقال وهو يتسم :

— أعرف .. سيثور ويسب ويلعن ثم يقوم ممسكا بتلابيبي .

— إنه غيور ، غيور جدا .

ثم قالت كالحالمة :

— ولكنه للذيد .

فقال وهو يتسم ابتسامة هزء واستخفاف :

— أَو لا يعرف أصدقاءك فى المحطات الأخرى ؟

— كل ما يطلبه ألا أخونه فى لشبونة .

— وهل فعلت ؟

— نعم .

— هذا وفاء من نوع جديد .

وصمت ثم قال :

— الوفاء الدائم يميت الحب ، خيانة الحبيب مرة تجدد نيران حبه وتزيد

لهيب الغرام اشتعالا .

— ماذا تريد أن تقول ؟

— أريد أن أؤدى لأخى المصرى هذه الخدمة الجليلة ، أن أكون أداة

الخيانة التى تزيد نار حبك ضراما ، إننى أقدم نفسى وقودا فى مذبح

حبكما .

فقالت فى صوت خافت كله إغراء :

— اسكت أرجوك .. بدأ رأسى يدور .

— ٤٧ —

- متى ستصل الطائرة إلى لشبونة ؟
— فى العاشرة والنصف صباحا .
— نتقابل فى الرابعة ، لنجوس خلال لشبونة ، ونذهب إلى ملهى من
الملاهى الليلية ، ..
— هل تريدنى أو تريد دليلا ؟
— أريدك .
— إذا كنت تريدنى فلماذا كل هذا الجرى ؟ هل معك أموال كثيرة ؟
— أبدا ، ولكننى أريد أن أدخل السرور على قلبك .
— إذا كنت سأتى فسأقابلك فى الثامنة مساء .
— أين ؟
— فى بار الديك . هل تعرفه ؟
— لا أعرفه ، وإن كنت أحس اللحظة إحساسه .
— إنه البار الملاصق للفندق الذى ستترى فيه .
— هذا جميل .
— ألا تذهب لتستريح ؟
— الآن أستطيع أن أنام .
وقبلها قبلة خاطفة وقال :
— أشكر لك حسن ضيافتك .
وذهب إلى مقعده يغرى النوم بأن يطوف به ، وغفا قليلا وسرعان ما
استيقظ ، فقد بدأت الحياة تدب فى الطائرة .

ولمح المضيفتين الآخرين تنظران إليه وفي عيونهما ابتسامات ، وفطن إلى أن ذات الشعر الأحمر أخبرتهما بالموعد المضروب بينه وبينها ، وجاءت الفتاة الصغيرة المشدودة الصدر التي تسير كممثلات السينما وقالت له :

— أنت مصرى ؟ ما كنت أظنك هذا أبدا ، إنك لا تشبه المصريين ، من يراك يحسبك إيطاليا .

فقال لها وهو ينظر إلى وجهها الذى كان أشبه بوجه طفل :

— وكيف تتصورين المصريين ؟

فقالت وهى تضحك :

— أتصورهم ؟؟ إننى أعرفهم جيدا .

— لم أكن أتصور أن بينك وبينهم صلة رحم .

وجاءت الثالثة تحمل طفلا صغيرا أسود كان أشبه بالدمية ، وقربته من

محمود وقالت : .

— جميل ، أليس كذلك ؟

فقال دون أن تحتلج فيه خلجة :

— إننى على استعداد للمساهمة فى إنجاب طفل أجمل من هذا .

ونظرت إلى ذات الشعر الأحمر وضحكت ضحكة لها ذبذبة خاصة

توحى بالغبطة والاستخفاف والرغبة فى الإفضاء بما سمعت ، وحملت

الطفل الأسود وذهبت إلى ذات الشعر الأحمر تهمس لها بما قال ، فما

كانت إحداهن تخفى عن الأخرى شيئا .

وراحت ذات الشعر الأحمر تخدمه فى عناية ، ووقفت تتحدث إليه
قالت :

— بقاؤك فى لشبونة على حساب الشركة ، ستتكفل بمصاريف
إقامتك حتى تقلك الطائرة الثانية . لا تدفع أجر التاكسى فستدفعه
الشركة ، ستنزل فى فندق كونديستافيل . هل من خدمة أخرى يا
سيدى ؟

— نعم .

— ماذا ؟

— هل فندق « كونديستافيل » قريب من بار الديك ؟
فقلت فى لهجة جادة ، فقد كان قائد الطائرة يمر بالقرب منهما :
— نعم يا سيدى .

ولم تستطع أن تخفى البسمة العريضة التى التمت فى عينيها .
ووصلت الطائرة إلى لشبونة ، ووقفت المضيفات الثلاث عند رأس
السلم يودعن المسافرين ويتقبلن شكرهم ، ومر محمود وهو فى طريقه
بذات الشعر الأحمر فقال :

— شكرا لحسن الضيافة ، وأرجو أن نلتقى مرة أخرى .

— شكرا .

وراح يدندن وهو هابط :

— فى الساعة الثامنة قابلت حبيبتي فى بار الديك .

كانت النغمة عربية ولكن اللفظ إنجليزى ، وبلغت دندنته مسامع

(ليلة عاصفة)

ذات الشعر الأحمر فالتسعت ابتسامتها وهى ترد تحية رجل مسن لا يجلب إلى الشفاه الظمأى دائما مثل تلك الابتسامة التى توجتها .

وفى مثل لمح البصر وجد نفسه خارج المطار ، لا تعقيدات جمركية ولا مراقبة نقد ، لقد أحس محمود السيارة فى شوارع لشبونة ، كانت نظيفة أنيقة لها شكل خاص بها يأسر قلب القادم لأول مرة ، ووقعت عيناه على بعض ميادين وتماثيل ، وعند تمثال الجندى المجهول عرجت السيارة يمينا ، وسرعان ما عرجت يسارا ، وبعد مسيرة بضعة أمتار وقفت أمام الفندق .

وهبط من السيارة ووقف يتلفت ، ولم يطل تلفته فقد رأى عن يمينه بارا فى لون الذهب ، وقد برز فى واجهته شكل ديك من خشب سميك حدد بأنايب النيون . فنظر إليه نظرة صداقة ، ثم اندفع إلى الفندق . وارتقى فى الفراش قبل أن يرتدى بيجامته وراح فى سبات عميق ، ولم يستيقظ إلا فى الجماعة السادسة .

وهبط يستكشف البار ، إنه مكان ضيق ابتلع البار نصفه ، وصفت فى النصف الآخر مناظير متلاصقة على جانبيها الكراسى . ولمح على مقعد مرتفع أمام البار فتاة حسناء ترتدى ثوبا أبيض وفى يدها كأس مترعة بالويسكى ، كانت آية فى الجمال حتى إنه فكر فى أن يدخل ويجلس إلى جوارها ويطلب كأسا ثم يأخذها بغتة ، ولكنه آثر أن ينتظر ذات الشعر الأحمر .

ووقف أمام البار ، وأقبلت فتيات يرتدين بنطلونات أمريكية

وقمصان مربعات وكن يتحدثن بأصوات عالية ، وراحت إحداهن تجرى وتقفز وقد أمسكت بعمود من الحديد يحمل لافتة كتب عليها « ممنوع الانتظار » وتدور حوله ثم تصيح صيحة انتصار عندما تستقر على الأرض ، وعادت تفعل بعمود ثان ما فعلته بالأول وزميلاتها يضحكن ، وقال بالعربية :

— ما هذا الجنون ؟

وسمعت الفتيات وأقبلن يحادثنه ، ولم يفهم كلمة مما قلن ولم يفهمن مما يقال حرفا ، وإن كانت إشاراته إلى الفتاة ووضع أصبعه على عقله قد أرشدهن إلى مقصده ، فرحن ينادين الفتاة ويتحدثن إليها وهن يتلفتن إليه ، وإذا بالفتاة تقبل وهي تجرى حتى إذا ما وصلت إليه انحنى أمامه كما تنحني ممثلة على المسرح ردا على تحية المعجبين بفنها ، ودار على عقبه ودخل الفندق يتسلى بمشاهدة التلفزيون .

وراح الوقت يمر وهو ينتظر ، حتى إذا ما أشرفت الساعة على الثامنة ذهب إلى بار الديك ؛ كان الليل قد أقبل والأنوار تتألق ، وظهر الديك في الضوء زاهيا ، عرفه الأحمر صاعدا هابطا ، وجلس على نضد بالقرب من زجاج الباب يرقب الطريق .

وفي الثامنة تماما كانت ذات الشعر الأحمر تجتاز باب البار ، كانت ترتدى ثوبا رياضيا يكشف ساقها وجزءا من صدرها وذراعيها البضتين ، وقد بدت فيه أنثى ؛ فحفق قلبه لأول مرة وهو ينهض لاستقبالها .

— ٥٢ —

قال :

— ماذا تشرين ؟

— كونياك .

وراحا يشريان وهما يتسامران ، قال لها :

— لا تنسى أن القاهرة المقر الدائم للجامعة العربية .

وقالت وقد رفعت حاجبيها دهشة :

— ماذا تقصد ؟

وقبل أن يجيب فطنت إلى مقصده فقالت وهى تضحك :

— سأقرر الليلة ما إذا كنت أتخذ القاهرة مقرا لى .

— ما رأيك فى أن نتناول العشاء معا ؟ استاكوزا .

— لا بد أن أعود مبكرة حتى لا يثور .

— أتخشين ثورته ؟

— أخشاه وأحبها ، جميل ، جميل أن يجد المرء من يغار عليه ، فالغيرة

دليل الحب .

ونفضت ونهض وذهبا إلى الفندق .

وقال لها وهى ترتدى ثيابها :

— إنكن ظالمات .

— لماذا ؟

— لأنكن تسلبن حق الفتيات فى كل بلد تنزلن فيه ..

— لا أفهم ماذا تريد أن تقول .



وراحا يشربان وهما يتسامران ..

— ٥٤ —

— أريد أن أقول إنك قد سلبت من فتاة غانية رجلا قد يكون من نصيبها ، وحرمت الليلة فتاة يرتغالية من متعتها .

فقلت وهى تبسم :

— كفيها خيبة أمل .

وضربها على مؤخر ظهرها بكفه فضحكت ، ومالت عليه وقبلته ثم

قالت :

— عندما أعود إلى مقر الشركة سألح في طلب نقل إلى الخطوط المارة

بالقاهرة .

فقال وهو يتسم :

— هذا تصحيح للأوضاع ؛ لأن مقر الجامعة العربية في القاهرة .

وفتحت الباب وخرجت وهى تلوح يدها محيية تحية وداع ، وإذا

بصورة الشاب اللبنانى الواضع يديه فى وسطه دائما تلوح لعينيه ، وإذا

بضحكة ساخرة تنبعث مجلجلة فى الغرفة ، ود لو أنها وصلت إلى أكرا

وصكت أذنيه .

عندما تمخدر نار جهنم

أنا ماريا مانويلا ، فتاة من لشبونة ، في الخامسة والعشرين من عمري ، لست عذراء ولست زوجة ، أنجبت طفلة صغيرة جميلة من سنة كدت أظير بها فرحا ، وغمرتني سعادة طاغية ، ولكن سرعان ما تقوضت سعادتي وأظلمت الدنيا في عيني وضاعت أمامي على رحابتها عندما علمت أنني لا أستطيع أن أدعوها لأبيها .

إنني بائسة يائسه ، لم أكن فتاة مستهتره ، ولم أكن بغيا ، بل كنت متدينة شديدة التدين ، ولا أزال أومن بالله ويومه الآخر ، وأذهب إلى الكنيسة أصلي وقلبي عامر بالمحبة والأمل والصفاء ، أحاسب نفسي على ما بيدر مني حتى لا آتي عملا يغضب الله فأطرد من رحمته ، لقد كنت في كل أفعالي أتقي نار جهنم .

ولكن هل إيماننا وحدنا يكفي ليدفع عنا الزلل إذا كان الآخرون لا يؤمنون بما نؤمن به ؟ أبدا ، فما استطاع إيماني العميق أن يثبت لكيد الذين كفروا والذين في قلوبهم مرض ، الذين انطلقوا في الأرض مفسدين بعد أن ماتت ضمائرهم يوم زاغت أبصارهم عن الله ، وانفلتت منهم شياطين شهواتهم ، واستبدت بهم رغباتهم يلبون نداءها دون رهبة ، فلم

يعد في قلوبهم مكان لإله يخشون بأسه ، وقد خمدت في نفوسهم نار جهنم .
كنت أعمل مدرسة ، وكانت المدرسة بعيدة عن دارى فكنت
أضرب في طرقات لشبونة الصاعدة الهابطة المبلطة بقطع صغيرة مربعة من
البازلت الأسود ، وأنا سعيدة ، لا يضايقنى حر الصيف ، ولا يجعلنى
برد الشتاء أتأفف ، فقد كانت فكرة أننى أكسب قوتى بشرف تغمر قلبى
بالطمأنينة والرضا .

وفي ذات يوم ظهر في أفق حياتى أنطونيو كوستا ، شاب في الخامسة
والثلاثين ، أنيق المظهر ، ممتلئ صحة ، يقود سيارة جميلة ، إنه مقول
ناجح ، عنده مال موفور .

كنت أجتاز أفينيدا الدبرادوا عند تمثال الماركيز بومبال فلمحتة في
سيارته يتبعنى ، فلم أحفل به ، وسرت في طريقى وإذا به يسبقنى
بسيارته ، ثم تقف السيارة بعيدا عنى ويهبط منها ويقف على الطوار ينتظر
وصولى .

خفق قلبى في شدة بين ضلوعى ، وأحسست رهبة ، ورحت أجمع
أشأتات نفسى التى ذهبت شعاعا ، وأفكر كيف أتصرف إذا ما تقدم إلئى
في جرأة ودعائى للركوب معه ، وقبل أن تهدأ نفسى كنت قد بلغته ،
وكان قد مال نحوى وراح يقول :

— أنا أنطونيو كوستا ، مقول معروف ، لست من الشبان الطائشين
الذين لا هم لهم إلا مطاردة الفتيات . ولكننى ما أن رأيتك حتى انجذبت
إليك ، ولم أستطع مقاومة الرغبة الملحة في صدرى التى راحت تحرضنى

على أن أقدم نفسي إليك ، وأعرض عليك صداقتى .
ووسعت من خطوى لأبتعد عنه وإن كانت ساقاى تكادان أن
تخذلانى ، وراحت دقات قلبى تدوى فى أرجائى ، والدم الحار يتدفق إلى
وجتى فأحس أنهما تكادان أن تنصهرا ، وإن كانت رياح الشتاء
تصفى .

ولحق بى وقال :

— أعرض صداقة بريئة فهد فى نبيل ، وما أهدف فى كل تصرفاتى إلا
إلى تحقيق آمالى بشرف ، إننى أمد لك يدى ولك الخيار فى أن تقبلها أو
ترفضها .

ومد يده إلّى وكدت أمد له يدى ، فقد هز حديثه عواطفى وحرك
النواحي الطيبة فى نفسى ، لقد عرف طريق الوتر الحساس فى قلبى
فضرب عليه ضربا خفيفا رقيقا تسرب حنونا إلى روحى ، ولكننى قلت
فى تخاذل :

— ليس الآن . أرجوك .

وسرت فى طريقى ، وعاد إلى سيارته وانطلق بها حتى إذا ملحق بى
حيائى ببسمة رقيقة من شفثيه ، وانحناءة خفيفة من رأسه .

وفتح حديث أنطونيو نوافذ كثيرة فى قلبى ، يا طالما جاهدت لتظل
مغلقة حتى يأتى الرجل الذى سيتزوجنى ليفتحها بيديه . لقد عشت
حتى الثالثة والعشرين أقاوم . إغراء الشبان الذين كانوا يحومون حولى .
كانوا يطرون جمالى ويوسوسون لى أنه حرام أن أترك هذا الجمال ينطفئ

دون أن أسعد به ويسعد به الراغبون في عب كآس اللذات ، ولكنني كنت أصم أذني عن همسات الشباب وعن همزات نفسي ، فقد وطنت النفس على أن أظل طاهرة الذيل ، حتى يحملني الرجل الذي سيسرفني بحمل اسمه ، وكنت أجد في مجاهدة المغريات المحيطة بي سعادة ، كان يزيد حلاوتها شعوري أنني سائرة في طريق الله .

كنت ظمأى الحب ، وها هو ذا شاب وسيم ذو مركز وجاه جاء إليّ يعرض حبه الشريف ، وغرضه النبيل ؛ فلماذا لم أضع يدي في يد الصداقة التي مدت إليّ ؟ إن مثل هذه الصداقة لا تنتهي إلا النهاية الطبيعية لكل صداقة بريئة بين شاب وفتاة ، الزواج . والزواج غاية وجودي ومنتى أُمالي في الحياة ، إنني أخطأت ساعة أن رفضت يد الصداقة الممدودة لي ، خذلتني نفسي . ولكن لماذا أصر على أنني رفضت ، إنني لم أرفض ، كل ما قلته له : ليس الآن أرجوك ، أي أنني مستعدة لقبول هذه الصداقة في فرصة أخرى أتأهب لها ، فقد باغتني مباغتة أذهلتني وعطلت فكري حتى كنت لا أدري كيف أتصرف .

وقررت في نفسي أن أقبل صداقته ، ولكن ما إن رأيته في اليوم التالي يتبعني بسيارته حتى فرعت واشتد وجيب قلبي ، وزاغت نظراتي ، ووسعت خطاي كأنما أفر من شبح يطاردني ، وجعلت أجاهد لأعيد الطمأنينة إلى صدري ، ولكن هيهات ، فقد كان الخوف يحتاجني ويقطع من أعماقي كل طمأنينة وأمان .

وظل يتبعني على البعد أياما ، وبدأت أحس أنه يزداد بعدا عني كلما

مريوم ، وأن أستارا بدأت تنسدل بينى وبينه حتى كاد يصبح ما بيننا ظلام قائم ، وكاد اليأس يدب إلى قلبى ، وراحت نفسى توسوس لى أن أشير إليه أدعوه قبل أن تفلت الفرصة السانحة وأعض بنان الندم ، ولكننى لم أجد فى نفسى القوة على رفع يدى .

وانقضت عشرة أيام وهو يتبعنى كظلى دون أن ينبس بكلمة أو يحاول أن يعترض طريقي ، وفجأة سبقنى بسيارته ثم وقف وهبط إلى الطوار ينتظر وصولى ، وخفق قلبى فى صدرى كجناح حمامة ، وكاد زمام نفسى يفلت من يدى ، ولكننى جاهدت حتى سيطرت على الرعب الذى أطل برأسه وبدت بوادره فى عيني وفى الجفاف الذى سكن حلقي .

واقترب منى وقال :

— إننى أمد إليك يد الصداقة لآخر مرة ، ولك فى أن تقبلها أو ترفضها ، فإن قبلتها فأنا سعيد ، وإن أصررت على الرفض فسأنصرف مطأطئ الرأس مهيبض الجناح ، ولن تقع على عينك بعدها أبدا .
ومد يده إلئى ، فوضعت يدى فى يده وأنا أحس كأنما يكاد يغمى على ، وظل ممسكا بيدي وراح يسحبني فى رفق وأنا أتبعه كالمسحورة حتى بلغنا السيارة .

وركبت إلى جواره ، وانطلقت السيارة بنا وأنا أحس كأن موسيقى عذبة تسرى فى أعماقى ، وأن دنان النشوة تنسكب فى روحي ، وأن ملائكة من السماء تطوف لى ، كانت لحظة فاصلة فى حياتى حفرت فى

أعمق أعماق ذاتي ، لن تمحوها يد السنين .

لم أكن أعرف في لشبونة حتى الساعة غير الحى الذى نشأت فيه ،
والطريق إلى المدرسة التى عينت فيها ، والحديقة التى كنت أمضى فيها أيام
الآحاد ، وبعض سينمات فى الحى ، ومرقص كنت أروّح فيه عن نفسى
أحيانا كلما أحسست الملل يتسرب إلى روحى ، ولكن بعد أن عرفت أنطونيو
تفتحت عيني على حياة جديدة ، أصبح يأخذنى إلى مطاعم كان مجرد
المرور عليها يملأنى بهجة ، دخلت « ألفالاد » و « كاف دى أورو » و
« بام بام » ، حتى مطعم « مكاو » الصينى تناولت فيه طعاما على
الطريقة الصينية وأصبحت خبيرة فى ألوان الأطعمة فى مطاعم لشبونة .
ودخلت معه بارات كثيرة ، وزرت الملاهى الليلية كلها :
« بيكودورادو » و « نينا » و « ريتس كلوب » و « بونتيانا » و
« مكسيم » ، ورأيت لأول مرة فى حياتى « نونو سانتش كوستا » وهى
تغنى على قيثارتها الحنون وتعبث بالقلوب فى أشهر الملاهى الليلية .

وذهبت معه إلى « الكورتيزيش نوما تورادا » وشاهدت مصارعة
الثيران وأنا منفعة أكاد أنكر نفسى ، فما كنت أصدق أنني أنعم بكل
هذه السعادة التى غمرنى بها .

ومرت الأيام مترعة بالغبطة والسرور ولم أمنحه إلا شفتى ، كنا
نتبادل القبل وكنت أصدده إذا ما حاول أن يتجاوز غاية ما قررت أن أعطيه
قبل أن تعلن خطبتنا .

وفى ذات يوم ذهبنا إلى النهر لنجتازه ونذهب إلى لشبونة الغربية ،

حيث الخضرة والمناظر الطبيعية الخلابة والهدوء الذى يبعث الراحة فى النفوس ، ودخلنا بالسيارة إلى المعديّة التى انسابت الهوينى تعبر التيفولى ، ولف ذراعه حولى وأسندت رأسى على كتفه ، وظل صامتا لا ينبس بكلمة وإن كانت أصابعه تضغط على ذراعى ، ففطنت إلى أنه مقدم اليوم على اتخاذ قرار خطير ، قرار طالما انتظرته وداعب طيفه خيالى فى يقظتى وفى منامى ، فلم أقطع عليه حبل تفكيره ، وشردت أسعد بالأمانى الدافئة التى احتلت صدرى .

وبلغنا الضفة الغربية ، وانطلقت السيارة بنا ترقى فى الطريق ، حتى إذا ما بلغنا ربوة خضراء هرعنا إلى ظل شجرة وارفة وجلسنا تحتها .

وراح يمر يده على شعرى فى حنان ثم قال :

— ماريا ، لم أعد أطيق حياتنا التى نعيشها ، إننى لا أستطيع أن أعيش بعيدا عنك ، إننى بدونك ضائع ، أصبحت كل شىء فى حياى ، عالمى ومحور تفكيرى والنسمات التى تتردد بين جنبى ، إننى كلما أتركك أحيا على أمل لقائك ، لن أتركك بعد اليوم أبدا ، سنعيش معا فى بيت واحد . بعد اليوم أبدا ، سنعيش معا فى بيت واحد .

وقلت له وأنا فى شبه غيبوبة من الانفعال والغبطة والخوف :

— وكيف ؟

فقال فى حرارة :

— أو جر لك غدا شقة نعيش فيها معا .

فقلت فى حدة :

— محال .

— لماذا ؟

— أنت تعلم أنني لن أقفل بابا عليّ وعلى رجل قبل أن يخطبني .

قال في انفعال :

— سأعلن خطبتنا .

وقلت له وأنا أميل عليه وأنظر إليه بكل نفسى :

— وحتى إذا أعلنت خطبتنا فلن أغلق عليّ وعليك بابا قبل أن نتعاهد

أمام العذراء على أن تكون وفيا لى وأكون وفية لك ، وأن من يربط الله بينهما لا يفصل ما ربطه إنسان .

فقال وهو يضمنى إليه وعيناه تأتلقان ببريق خاطف :

— أفعل .

وغبنا عن الوجود فى قبلة طويلة حارة .

وأثنا شقة صغيرة أنيقة ، وأعلنت خطبتنا ، وذهبنا إليها ننسق بعض

ما حملناه من أحوات ، وراح يقبلنى فى وله ، ويسير بى إلى غرفة النوم ،

وكدت أتخاذل ، ولكنى جعلت أقاوم ذلك الخور الذى راح يتدسس فى

روحى ، وأبجرة النشوة التى ملأت رأسى حتى كادت تعطل عقلى ،

وقلت فى عزم كلفنى جهدا شديدا :

— لا . لن يكون شىء من هذا قبل أن نتعاهد أمام العذراء .

وانطلقت السيارة بنا إلى « جوفادا إيريا » حيث كنيسة « سانت

فاتىما » ، قطعنا مائتى كيلو تقريبا واجتزنا التلال وإذا بالكنيسة شاهجة ،

حيث ظهرت العذراء من أربعين سنة لثلاثة من الرعاة الفقراء .
كان الذين من الله عليهم بالشفاء من أسقامهم يملئون الطريق ، كانوا
يججون إلى الكنيسة سيراً على الأقدام ، اعترافاً منهم بما أسبغه الله عليهم من
نعماؤه ، وكان المرضى في طريقهم إلى الكنيسة يلتمسون الشفاء
وينذرون النذور .

واجترت باب الكنيسة وأنطونيو إلى جوارى يسند ظهرى يده ،
وأحسست خشوعاً يملأ جوانحي وروحاً نقية صافية ترفرف بين جنبى ،
ودموعاً طاهرة تندفع إلى عيني ، وما كنت أدري أنها آخر دموع لم
تتلوث بالدنس تنبثق من مقلتي .

وتقدمت إلى تمثال العذراء وكانت في ثياب بيض ، وعلى رأسها عباءة
بيضاء وتاج من ذهب ، وقد ثنت ذراعيها والتصق كفاها أمام صدرها ،
وتحت أقدامها ورود بيضاء في لون اللبن وحمراء في لون الشفق ،
وخررت ساجدة أردد صلاتى في حرارة وإيمان عميق وركع أنطونيو إلى
جوارى ، ولم تتحرك شفتاه وإن أسبل عينيه ، فحسبته يصلى بقلبه ،
والقلب أقصر طريق إلى الله .

ورحت أعاهده أمام العذراء على الحب والوفاء ، وقد أنكرت
صوته ، لم يكن متهدجاً ولم يكن مفعماً بالمشاعر الطيبة ، فالكلمات التى
نطق بها لسانى كانت حارة مشحونة بالإيمان ، أما الكلام الذى كان
يردده فلم يكن نابعا من قلب يستشعر خشية الله . أحسست كل هذا
وأنكرته ولكننى عللت النفس بأتنى امرأة لا تستطيع كبت عواطفها ،

— ٦٤ —

أما هو فرجل قادر على كبح مشاعره وما يختلج في نفسه .
وعدنا إلى العش الذى أثناه وعشنا فيه زوجين نعب كأس الهناء ؛
وفي ذات ليلة قال لى وهو يضمنى إليه :

— ماريا ، إننى لا أحب أن تعمل زوجتى .
— لماذا ؟

— لأن المدرسة تسلبك منى ، إننا لسنا فى حاجة إلى مال .
ولم أكن أعصى له رغبة ، فاستقلت من وظيفتى وتفرغت له .
ومرت الشهور مرور الطيف ، وجئت إليه وقلت :
— أنطونيو ، هات أذنك .

وألقمنى أذنه ورحت أهمس :
— أنطونيو ! تحرك ابنك فى أحشائى .

وترقت أن تهلل أساريه ، وأن يصمنى إليه ويمطرنى قبلات ، ولكنه
وجم وأطرق ساهما ولاح فى وجهه الهم ، وراحت الرهبة تنتشر فى جوفى
فقلت له :

— لكأن النبأ لم يسرك .

فقال وهو مطرق :

— هذا حق .

فقلت وأنا أبعد وأرمقه بعيون مفتوحة :

— لماذا ؟

— لأننى لا أريد أن أنجب أبناء قبل أن يتم زواجنا ؟

— لقد أعلننا خطبتنا وهذا يكفي .

— ولكننى لا أريد أبناء قبل أن تتم جميع إجراءات الزواج .
وراح يزين لى الإجهاض ، ورضيت على مضض إكراما له . كانت
أمومتى قد تحركت ، وكانت عواطفى الطيبة كلها قد اتجهت إلى ذلك
الذى فى أحشائى ، والذى أحببته قبل أن أراه ، ولكننى ضحيت به فى
سبيل رغبة زائفة .

وراحت الأيام تمر وهو يحوطنى بعطفه ورعايته ونسيت ما كان من
أمر ذلك الذى قتلته فى بطنى قبل أن يكتمل ، حتى وخزات ضميرى
خبت وطاف بى شعور طيب راح يوحى إالىّ بأن الله قد غفر لى .
وحملت مرة ثانية ، ولم أفرض بسرى فقد عزمت على أن أضع مولودى
كما يضع النساء الأخريات أولادهن ، وبعد شهور انكشف أمرى ،
وجاء إلى يغربنى بمعاودة الإجهاض ولكننى أبيت ، واشتد فى الإلحاح
وأصررت على الرفض ، وبدأ يتغير ، راح يشرب كثيرا ويعتمد أن يسىء
إلىّ .

ووضعت أنثى جاءت متفتحة كورد الربيع ، وتفتحت لها نفسى
وتعلقت بها كل جوارحى ، وانتظرت أن يميل عليها يقبلها كما يفعل
الآباء ، ولكنه كان لا ينظر إليها ، وإذا وقعت عيناه وقفت عفوا زور عنها .
وحز ذلك فى نفسى وحرك شكوكى ، وقد أصبحت تلك الشكوك
يقينا عندما طلبت منه أن يسجلها لتحصل على شهادة ميلاد ، قلت :
— نسميها ماريا تريزا أنطونيو .

(ليلة عاصفة)

فقال وهو يمنحني ظهره :

— لا أستطيع أن أمنحها اسمي .

فقلت في فزع :

— تمنحها ؟ إنها ابتك ، ومن حقها أن تحمل اسمك .

— محال .

— لماذا ؟ .

— لأنني متزوج ولى أولاد .

وأحسست كأن أنقاض الدنيا سقطت على رأسي ، وراحت الأرض تميد بي ، وجعلت أصرخ وأبكي وأسب وأمزق شعري وأخمش وجهي ، ولكن كل ذلك كان هباء ، فقد جاءت ابنتي إلى الوجود دون أن تستطيع حمل اسم من أوجدها .

وخمدت نار ثورتي ، وتفتحت عيناى على الدنيا البغيضة التى تنتظرني . ماذا أفعل ولم أعد وحدي ؟ فقدت وظيفتي وما كان لى مورد رزق آخر . وانتابنى يأس شديد ، ولم يكن أمامي إلا أن أقبل أن تستمر علاقته بى على أن يدفع نفقات البيت ونفقات ابنته .

وراحت الأيام تمر والعلاقة التى بيننا تفتر ، وبدأ يقتر فى الصرف ، يدفع مرة ويماطل مرات . وتراكت الديون على ، وجعلت أتوسل إليه أن يرحمنى ، وأستحلفه ، بذكرى اللحظات السعيدة التى عشناها معا أن يصون ما بقى لى من شرف ، فوعدنى بأنه سيسدد كل ديونى ، وسيرتب لى ولابنته معاشا ، ولكنه ذهب فجأة كما جاء فجأة وتركنى أنا وابنتى

نصارع القدر .

بعث كل ما عندي من أثاث ، ولم أعد أملك إلا السرير الذي أنام عليه
أنا وهي ، وقد كلت قدماي من البحث من عمل . إنني أريد أن أعيش
ما بقي من عمري حياة شريفة ، أكفر عن جريمة رجل خبت في نفسه نار
جهنم ، ترى هل أوفق إلى عمل أصون به نفسي ، أو سترغمني ظروف
أن أتسكع في الطرقات لأكل أنا وابنتي من أخس مورد تأكل منه امرأة ؟؟

لَيْلَةُ حَاصِفَةٍ

وقفوا أمام موظف الجمرك وقد فتحوا حقائبهم ، وراح الرجل ينظر داخل الحقائب ويسأل عن الأشياء التي يستحسن تحصيل عوائد عليها ، وكان يصدق كل ما يقولون ، كانوا خليطاً من أجناس شتى يتأهبون لمغادرة ألمانيا والانطلاق إلى الدانمرك .

وكان بينهم فريق من الشبان والشابات الدانمركيين في رحلة خاطفة في أوروبا في طريق عودتهم إلى وطنهم ، وكان السهر والتعب يلوح في عيونهم حتى إن بعضهم لم يستطيعوا إلا أن يسبلوا جفونهم ويلقوا برؤوسهم على صدورهم ، ومع ذلك كان أغلبهم يرحلون ويضحكون ويغدون ويروحون في نشاط ، فقد كانت الحياة تجري في عروقهم .

وبدأ موظف الجمارك يجمع جوازات السفر ، وقدم له شاب أسمر حواز سفره ، وكان أخضر اللون مكتوباً عليه بحروف عربية ، فراح الرجل يقلبه في يده ، ثم فتحه وقرأ بصوت عال :

— أنور صالح ، مصرى ، تاريخ الميلاد ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٣ .

أليس كذلك ؟

والفتت إلى أنور فألفاه يهز له رأسه موافقاً ، وقال الرجل وهو يقرب



يا مصطفى يا مصطفى ، أنا بهيك يا مصطفى

— ٧٠ —

جواز السفر من عيني أنور :

— أين رقم الجواز من فضلك ؟

وأشار أنور بأصبعه إلى الرقم ، وكانت فتاة من الدائريين تتابع الحديث ؛ كان شكلها أقرب للأسكيمو وكانت في عينيها المجهدين من السفر خفة ، ودنت من أنور وقالت :

— مصرى ؟

— نعم .

وإذا بالفتاة ترفع يديها في الهواء وتحاول أن ترقص رقصا شرقيا وهي تغنى :

— يا مصطفى يا مصطفى ، أنا بهيك يا مصطفى ..

وأسرع أصدقاؤها يصفقون لها ، وشاركها بعضهم في تقليد الرقص الشرقى بطريقة مضحكة جعلت مصطفى يتسم ضاحكا ، والتفوا حوله وهم يرقصون ويضحكون ، ووقفت فتاة ترتدى ثوبا من قطعتين في لون الشفق ، وقد تدلت آلة تصوير فوق صدرها ، تقرب مايجرى وفي عينيها إشراقة وعلى شفيتها بسمه حلوة .

وأقبلت فتاة من الشلة على أنور وقدمت إليه مشطها ، واستدارت له ومالت نحوه برأسها ، فلم يجد أنور بدا من أن يصفف لها شعرها وأن يمرر يده على رأسها ، والتصق ظهرها بصدره فاستشعر ضيقا ، كانت رائحتها تشي بها ، لعلها خلعت ثيابها في الليلة الماضية أو الليالى السابقة ، ولكنها لم تذهب إلى الحمام من مدة .

ونادى موظف الجمارك على المسافرين من الدائركيين ، وسمع أنور اسمه فتقدم ، ووقف إلى جوار الفتاة التى ترتدى ثوبا من قطعتين فى لون الشفق وخيل إليه أنها تبتسم له فانبسطت أساريره دون أن تتفرج شفتاه ، وانتهى موظف الجمارك من قراءة ما معه من أسماء ، وإذا بموظف آخر يطلب من المسافرين أن يتبعوه .

وسار أنور إلى جوار الفتاة ، ونفذ الجميع من باب ضيق فإذا هم على رصيف الميناء ، وإذا بقطار يصل إلى نهاية قضبان الرصيف وينساب على القضبان الممتدة فى جوف السفينة ليستقر فيها ، وتمهل أنور فى سيره ينظر ؛ كانت أول مرة يرى فيها قطارا يحمل فى سفينة ليجتاز البحر ، ومن ثم يعاود انطلاقه على الأرض .

وصعد فى سلم السفينة والفتاة إلى جواره ، واحتك كتفه بكتفها أكثر من مرة ، والتقت عيناه بعينها مرات ، ولم يفكر فى محادثتها ؛ كان يعتقد فى قرارة نفسه أنه سيمضى الرحلة مع الشبان الدائركيين يشاركونهم مرحهم وطيش الشباب .

وانساب بين قاعات الجلوس ودكاكين بيع الهدايا على ظهر السفينة ، ووجد بعض الأرفف فترك حقيبته الوحيدة الصغيرة التى كان يحملها ، ثم راح يجوس خلال المكان يتلفت ، وإذا به يسمع صوتا نسويا يقول بالإنجليزية :

— أين وضعت حقيبتك يا مصطفى ؟

فالتفت فإذا بها الفتاة ذات الثوب الذى كان فى لون الشفق ، فقال

لها :

— تعالى .

وسار معها حتى بلغا مكان حفظ الحقائق فوضعت حقيبتها بالقرب من حقيبته ، وإذا به يمد يده ويتناول الحقيبة ويضعها فوق حقيبته خشية أن تخدش ، ثم يقول لها :

— إلى أين ؟

فقالت له في بساطة :

— إلى أين تحب أن تذهب ؟

— أنا ذاهب إلى سطح المركب ، لأنى أحب أن أرقب الشاطئ وهو يتعد عنا .

فقالت وهى تبتسم :

— هل الشاطئ هو الذى يتعد أو السفينة ؟

— المسألة نسبية ، والعبرة بالأشواق التى على الشاطئ والتى على السفينة .

ونظرت إليه مفتوحة العينين كأنما تتساءل : أفهم ما يقول ؟ وقالت وقد توجت شفتيها بسمة :

— وأنا أحب أن أرى المركب وهو يتعد عن الشاطئ .

ومشيا فى ممرات السفينة ، وخرجا من طاقة لا تسمح إلا بمرور شخص واحد إلى السطح المكشوف ، واتجها إلى الحاجز ووقفا ينظران . كان القطار قد استقر فى جوف السفينة ، وكانت سيارات بعض الركاب

— ٧٣ —

قد صفت بالقرب منه ، وكانت السفينة على أهبة الرحيل ؛ أطلقت صفارة طويلة ، وارتفعت أصوات حركة المحرك الرتبية ، ثم بدأت الرحلة .

قالت الفتاة وهي تنظر أمامها :

— الشاطيء يتعد عنا ، كنت على حق يا مصطفى لما قلت إن الشاطيء هو الذى يتعد . إننا هنا ثابتون ، وسنكون هنا دوما ، أما الشاطيء فهو الذى يتعد ، هو الذى سيختفى .

فقال وهو يرنو إليها رنوة فيها خيبث :

— إننى أحس يا كاترين كلما بعدت عن شاطيء أو هبطت فى مطار ، أننى أولد من جديد .

فرمقه بدهش وقالت :

— ومن قال لك إننى أدعى كاترين ، اسمى إستر .

— ومن قال لك إننى أدعى مصطفى ، إن اسمى أنور .

وضحكا . وقال :

— من أين ؟

— من نيويورك ، وأعرف أنك من مصر .

ورفعت يديها فوق رأسها دون أن تحاول تقليد المراقصات الشرقيات .

وراحت تغنى :

— يا مصطفى يا مصطفى .

ورفع رأسه فرأى أسراب الطيور المائية تتبع السفينة ، كانت أشبه بمظلة من الطائرات تحمي سفينة حربية ، ومد بصره إلى البحر فالقى الأمواج في حركة دائبة كجياذ شهب يجرى بعضها في إثر بعض . وجعل يملأ عينيه بجمال الطبيعة ، ورئتيه بالهواء الذى أنعشه ، ثم عاد ينظر إليها فوجدها تنفرس فيه وهى شاردة ، فقال لها :

— ما الذى يشغل رأسك ؟

— سؤال قد يكون تافها .

— وما هو ؟

— أهذه أول مرة ترتدى فيها مثل هذه الثياب ؟

وأشارت برأسها إلى ثيابه فقال فى هدوء :

— ما الذى جعل هذا السؤال يدور فى خاطرك ؟

— كنت أعرف أن العرب يرتدون العباءة والعقال .

فقال لها فى سخرية خفيفة :

— وأن لكل رجل حريما قد يضم أربعين غانية ، كلهن رهن إشارته ،

وطوع بنانه ، وما عليه إلا أن يصفق حتى يهرعن إليه يرقصن ، ويتأيلن

فى دلال ، ويذلن كل ما فيهن من إغراء وسحر لإدخال السرور على قلبه .

فقالت وقد اتسعت عيناها :

— أوليس ذلك هو الواقع ؟

— هذا واقع ألف ليلة وليلة ، أما واقعنا فشئ آخر ، إننا فى مصر

نرتدى هذه الثياب ، ولا أقول ذلك فخرا بل لأقرر حقيقة ، ولا أحسب أن طراز الثياب التى نرتديها يمد الإنسان بقيمة خاصة .

— الثياب لها دلالتها ولا شك ؛ فالمتحضرون لهم ثيابهم ، والمتخلفون لهم ثيابهم أو يضربون فى الأرض عرايا .

— هذه وجهة نظر عجل ، أكانت عقلية أينشتين تتغير كثيرا لو أنه استبدل الروب دى شامير بالعباءة ؟ حضارة الشعوب فى عقول أبنائها ، فى الميراث الإنسانى الذى ورثته عن أسلافها ، فى عراقة تاريخها ، لا فى أزياء الفارغين من ذريتها .

فقلت له وهى تبتسم :

— احتفظ برأيك هذا لنفسك ولا تعلنه .

— لماذا ؟

— حتى لا يصل إلى بيوت الأزياء فيقتلوك .

فتبسم ضاحكا وقال :

— والحريم ، ألا أتحدث عنهن ؟

— حديث الحريم ممتع تفتتح له الآذان والقلوب .

— وتهيم فيه الأخيلى ، وقد قيل ما اجتمع ملكان إلا كان الحديث

بينهما عن الحريم .

فهمت رأسها فى إعجاب وظهر فى وجهها الاهتمام ، فقال لها وهو

يتظاهر بالشroud :

— فى قصرى أربع زوجات . وعشرون جارية لم تتجاوز واحدة

— ٧٦ —

منهن الثانية والعشرين من عمرها ، شعورهن في لون الليل الذى اختفت
نجومه ، وعيونهن كعيون المها تنفث السحر وتعبث بالقلوب ،
وأجسامهن كالبلور لما يشع النور ، وفي قصرى بركة ملئت بماء الورد ،
فإذا ما جن الليل خلعت الجوارى ثيابهن ..

وتوقف عن سرد باقى قصته ، فقالت فى لهفة :

— هيه ؟

فقال فى سخرية :

— أرايت أن الثياب لا قيمة لها حتى فى القصور ؟

فقالت تستحثة ليقص باقى قصته :

— ماذا يحدث بعد أن تخلع الجوارى ثيابهن ؟ قل .

— يقفزن فى البركة وهى يضحكن ضحكات تدغدغ الحواس ،

فتفور دماءى فى عروقي فأخلع ثيابى وأقفز خلفهن .

وتهدت إستر وقالت كأنما تحلم :

— رائع .. عاطفى ..

— هذه هى صورة الشرق فى أذهانكم .

— أو ليست هى الحقيقة ؟

— الحقيقة أن أغلبنا لا يتزوج أكثر من واحدة .

— كيف تريد أن أصدق هذا ؟ هذا لا يمكن تصوره .

— أنا معك ، من الصعب أن تتصورى هذا بعد الذى سمعته أو قرأته

أو شاهدته عنا فى السينما ، ولكننى أوكد لك أننى متزوج من فتاة كانت

— ٧٧ —

زميلتى فى الجامعة ، وهى مثلك تهتم بزيتها ، وتتابع أحدث مودات
تصنيفات الشعر ، وآخر ما ابتكرته بيوت الأزياء .
فقلت فى حماسة :

— إنها تستجيب للطبيعة لترضيك .

— لو كنا نستجيب للطبيعة لوجب علينا نحن الرجال أن نترين لكن .
فقلت وهى تنظر إليه فى دهش :

— لا أفهمك ، ولا أستطيع أن أدرك ماذا تقصد ..

— الطاووس الذكر له ريش رائع خلاب ينشره ليغرى به الأنثى بينما
الأنثى عطل من كل زينة ، والديك له عرف أحمر أروع من تاج على رأس
ملك بينا الدجاجة لا جمال فيها ، وكذلك الحال فى ذكور كل
الحيوانات ، فإذا كنا نستجيب حقاً للطبيعة لكان علينا نحن الرجال أن
نبرز فتننا لندير رعوس النساء .

— ولماذا لا تفعلون ؟

— لأن فتننا فى عقولنا .

وشردت تنظر إلى الأفق البعيد ولزمت الصمت ، وراح يرنو إليها
بعين فاحصة ، كانت تقاطيعها متناسقة ، وشعرها أصفر ، وعيناها
زرقاوين ، وبروز صدرها متواضعا ، وكانت نحيلة فى رقة ، ولكن
شخصيتها كانت أجمل ما فيها .

وقال لها وهو يدنو منها :

— فيم تفكرين ؟

— فى كل ما قلته لى . قضيت فى لحظات على سحر الشرق الذى كان
يملاً نفسى ، فلطالما حلمت بأن أذهب إلى الشرق وأن أخرج إلى
الصحراء على ظهر حصان .

— وأن يخطفك ابن الشيخ ويفر بك إلى خيمته .
فهزت رأسها فى أسى ؛ فقال لها :
— صورة جميلة تستهوى كل الفتيات ، آسف إن كنت قد أفسدت
عليك أحلامك .

— أنفع ما فى هذه الدنيا الأحلام .
— حقا الأحلام رائعة ، ولكن ينبغي أن نتعلم كيف نفرح بالحقائق
التي نكتشفها ، حتى ولو كانت مرة .
وتحسست الكاميرا التي على صدرها ، وقالت وهى تستدير لتقف فى
مواجهته على بعد خطوات منه :
— سألتقط لك صورة .

وانهمكت فى آلة التصوير ، وجعلت تتحرك ، تتأخر خطوة وتخطو
إلى اليمين خطوة وترفع الكاميرا على صدرها ، وارتفع صوتها :
— واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

واتجهت إليه وقالت :
— أسمح أن تلتقط لى صورة ؟
— بكل سرور .

وتناول الكاميرا منها وقلبها فى يديه ، فقالت له :

— أتجيد التصوير ؟

— لن أدعى أنني حصلت على جميع جوائز التصوير في بلادى ، ثم لا تظهر بعد ذلك في الصورة إلا السماء أو الماء أو بعض الغادين والرائحين هناك أما أنت فلا يبدو لك فيها أثر .

والتقط عدة صور ، وقام أحد المسافرين بالتقاط صورة لهما معا ، ثم دخلا إلى قاعة الطعام وطلبا قدحين من الشاي وراحا يستأنفان الحديث ، قالت له :

— ما هو برنامجك في كوبنهاجن ؟

— سأزور حدائق التيفولى في المساء ، وفي صباح غد سأطوف في أنحاء كوبنهاجن في سيارة من سيارات السياحة ، وسأزور القلعة التي وقعت فيها مأساة هملت ، والبيت الذى ولد فيه أندرسون .
فقلت وقد شردت ببصرها :

— أندرسون ؟

— الكاتب الدانمركى الذى كتب أروع قصص العفاريت والأساطير .

فنظرت إليه وقالت :

— الظاهر أنك من هواة الأدب .

— أنا قارئ نهم . قد أقرأ فى ليلة أكثر من كتاب .

— أقرأت لأحد من الكتاب الأمريكان ؟

— لأغلبهم ، وآخر ما قرأت من الأدب الأمريكى مسرحية لتينيسى

وليمز .

— ما رأيك فيه ؟

— أقول رأيي صراحة ولا تغضين ؟

فهزت رأسها أن نعم ، ولاح في وجهها الاهتمام وتعلقت عيناها
بشفتيه ، وقال :

— من يقرأ تنسى وليمز يعتقد أن الأمريكان كلهم منحرفون ،
مجانين ، يعانون رجالا ونساء من الشذوذ الجنسي والانهيال الخلقي ،
ضائعون لا تحرّكهم إلا غرائزهم ، ليست في حياتهم إشراقة أمل ولا إيمان
عميق .

— أفهم من ذلك أنك لا تقدره ؟

— بالعكس إنني أقدره وأعرف أنه عبقرى في فنه ، وهذه العبقرية هي
التي جنت على أمريكا ، جعلت فنه ينتشر في الدنيا ، ويسرت له عرض
صورة هابطة للأمريكان على أنظار العالم .

وغابت الشمس في الأفق ، ووصلت السفينة إلى البر ، فتح حانيتها
ليخرج منها القطار ليحمل الناس إلى كوبنهاجن ، ووقف المسافرون
يتأهبون للهبوط إلى أول أرض دائرية قابلتهم .

ونزل أنور وإستر مع النازلين وانطلقا إلى مقصورة في القطار وكانت
أمنية كل منهما ألا يشاركهما أحد فيها ، وإذا بالباب يفتح ويتدفق إلى
الديوان بعض عجائز الأمريكان .

وانساب القطار في الليل في المروج الخضراء ، وراح النسوة يثرثرن ،

— ٨١ —

وأنور وإستر يتبادلان النظرات وبعض أحاديث خاطفة ، وفتحت إستر حقيبتها الصغيرة لتخرج منديلا نظيفا ، وظهرت زجاجة التبيد التي اشترتها من الباخرة ، فقال لها أنور :

— الزجاجة تحفة فنية .

— رائعة ، ولكنى أفكر فى تركها .

— لماذا ؟

— رجال الجمارك عندنا فى منتهى القسوة ، لو عثروا عليها فى حقائبى ، وسيعثرون عليها حتما فهم يفتشون أمتعة العائدين من أوروبا قطعة قطعة ، فسيوقعون على غرامة كبيرة .

وقدمتها إليه وقالت :

— هل لك فى أن تنقذنى منها ؟

فقال وهو يرفضها بيده :

— شكرا ، لا حاجة لى فيها .

وبلغ القطار محطة كوبنهاجن وكانت تموج بالناس موجا ، رجال ونساء من كل جنس يدخلون من أبوابها المتفرقة ، وجماعات من الناس يهبطون من قطارات كثيرة يتجهون إلى الأبواب ليخرجوا منها ، ومحال كثيرة منتشرة فى بهو المحطة تعرض كل السلع ، وحركة دائبة نشيطة . كان المكان أشبه بخليّة نحل لا تهدأ .

وسار أنور وإستر مع جموع الناس المتدفقين إلى العاصمة ، واتجه الجميع إلى أكشاك السياحة المنتشرة فى مواجهة المحطة ليحجزوا أماكن (ليلة عاصفة)

مبيتهم ، ووقف أنور في الصف ، ووقفت إستر في نفس الصف خلفه
يفصل بينه وبينها ثلاثة رجال .

وراح أنور يتقدم في بطء وكان يتلفت نافذ الصبر ، والتفت خلفه
أكثر من مرة وكانت عيناه في كل مرة تلتقيان بعيني إستر ، وخطر له أن
يسألها هل يحجز لها معه في نفس المكان الذي سينزل فيه ، ولكنه طرد
هذه الفكرة وفضل أن يدعها تختار على هواها .

وبلغ في زحفه موظف السياحة ، وكانت أمامه ورقة كبيرة أشبه
بخرطة مدون بها الأماكن الخالية وعناوينها ، وقال أنور :
— أريد غرفة بسرير واحد قريبة من هنا .

فأعاد الرجل النظر في الورقة ثم قال :

— آسف ، لا توجد إلا غرفة بسريرين ، وتبعد عن هنا بالسيارة
بمقدار عشر دقائق .

ولم يجد أنور مفرا من قبولها فقال :
— لا بأس ، إنها ليلة واحدة .

وكتب له موظف السياحة العنوان في ورقة ، وأجرتها في الليلة .
وشكر أنور الموظف وابتعد منصرفا ، وهم بأن ينطلق ولكنه أثر أن
يتريث حتى تنتهى إستر من حجز غرفتها ، ثم يودعها ويذهب إلى حال
سبيله .

وأقبلت إستر نحوه وفي نظراتها قلق ، وقالت :

— لم أجد مكانا أبيت فيه ، جميع الغرف حجزت .

— ٨٣ —

— وماذا ستفعلين الآن ؟

— سأبحث عن مكان أبيت فيه .

فشرد بصره ولاح في وجهه التفكير ، وهم بأن يقول شيئا ولكنه عاد وأمسك لسانه ، وفطنت إلى تردده فقالت له :

— ماذا تريد أن تقول ؟

— لم أجد إلا غرفة بسريرين .

وصمتت قليلا ، وقالت له مشجعة :

— ماذا يدور في رأسك ؟

— خطر لي أن أعرض عليك أن تبتي الليلة معي في هذه الغرفة ، وأن نستفيد مرة مما نراه في السينما الأمريكية ، نشد جبلا في وسط الغرفة ونثبت عليه بطانية ، وبذلك نقسم الغرفة إلى غرفتين مستقلتين .
وخشى أن يكون قد أساء إليها فقال :

— فعل ذلك مرة كلارك جيبيل في رواية : « حدث ذات ليلة » .

فابتسمت وقالت :

— لا بأس ، إنى أثق فيك .

وأشرق وجهها وسارت إلى جواره مطمئنة ، وقالت :

— ما هي خططك لهذه الليلة ؟

— نذهب إلى التيفولى نغضى السهرة فيها ثم نذهب آخر الليل إلى

غرفتنا .

— فكرة .

— ٨٤ —

— التيفولى على بعد خطوات من هنا .

— هل زرت كوبنهاجن من قبل ؟

— أبدا ؟

— وكيف عرفت أن التيفولى قريب من هنا ؟

— ها هي ذى أضواؤه تتلأأ .

واتجهها إلى الأنوار التي كادت أشعتها تبلغ السماء ، كانت واجهة حديقة التيفولى مؤتلفة بأنوار المصابيح الكهربائية التي يكاد سناها يهر الأبصار ، وكانت سيول الناس تندفع إليها من كل صوب وحذب ، وكانت تبدو للعيون كأنها غارقة في سحر . ودخل أنور وإستر وهما مأخوذان بروعة المكان ، لكأنما كانا يخطران على أرض الأحلام .

وسارا في طريق بين أشجار تسطع داخلها مصابيح ملونة ، تنشر على صفحات أوراقها أضواء خلابة تفتح النفس لها ، وكان على جانبي الطريق جداول من الماء ثبتت في قيعانها مصابيح ملونة ، فبدت أسطحها كألواح من بلور تعكس ألوان الطيف ، وانتشرت أضواء فضية جذابة على النبات الأخضر المنتشر على سطح الماء كأوراق البردى . كان المشهد جميلا يسيى العقول ويغلب الألباب .

ووقعت أعينهما على المطعم البلقانى الذى كان يتألق بالنور ؛ كان على هيئة قبة إلى جوارها مئذنة ، وكانت القبة والمئذنة ومباني المطعم الأخرى تشع أنوارا تخطف الأبصار ، وسارا وهما مشدوهان من الروعة ، وقالت
إستر :

— ٨٥ —

— رائع .. ساحر .. عاطفى ..

وقال أنور وعيناه مفتوحتان :

— إننا فى أعظم حدائق العالم روعة .

ورأيا ملاهى لونا برك فھرعا إلھا فى مرھ ، وصعدا بعض درجات
وأصوات الرجال والنساء والأطفال تجلجل فيها حتى تكاد تغطى على
الموسيقى المنبعثة من كل مكان .

وجاء قطار وراح ركابه يغادرونه ، فقفز أنور إليه وقفزت إستر إلى
المقعد المجاور له ، وانطلق القطار فى كهوف مظلمة ، وراح يرقى
مرتفعات عالية ويهبط فى منحدرات سريعة خطرة ، وارتفعت صيحات
الركاب ، وتعلقت إستر برقبتها وهى تضحك وتصرخ من الفزع
وتتحرك حركات هستيرية ، وهو يغالب خوفه ويلتصق بها ويضمها
إليه .

وهبطا من القطار ، وراحا يجوسان خلال الحديقة حتى بلغا ركنا
هادئا انتشرت فيه مقاعد تحت خمائل صغيرة ، وكان فى كل مقعد
عاشقان يتناجيان أو يتبادلان القبيل .

وهبت ريح باردة لم يحفلا بها ، كانت رغبتهما تدفع صدورهما ،
وذھبا إلى مقعد بعيد عن أنظار المارة وجلسا وراحا يتناجيان ، وغابا فى
قبلة طويلة لم يفيقا منها إلا على أصوات الصواريخ التى بدأ إطلاقها فى سماء
الحديقة .

وراح المطر يتساقط زذاذا ولم يحسا سقوطه ، قال لها :

— ٨٦ —

- متى تفكرين في زيارة مصر ؟
- في إجازتي القادمة ، سأزور إسرائيل وسآتي إلى مصر بعدها .
- لو ذهبت إلى إسرائيل فلن تدخل مصر .
- فاعتدلت وقالت :
- لماذا ؟
- لأننا نقاطع إسرائيل ، لا نزال في حرب معها .
- لماذا تكرهون اليهود ؟
- ولماذا هذا الافتراء ؟ إننا لا نكره اليهود ، إنني منذ أول لحظة وقعت فيها عيناى عليك عرفت أنك يهودية ، ولما قلت إن اسمك إستر تأكد لي ذلك ، فهل بدرت منى بادرة توحى بالكراهية ؟ إننا نمتت الصهيونية ، ونعرف كيف نفرق بينها وبين اليهودية .
- ولماذا تكرهون الصهيونية ؟
- لأننا نكره العدوان ، نكره الطغيان ، نكره الظلم .
- أوليس من الظلم أن يظل اليهود مشردين في الأرض قرونا مضطهدين لا وطن لهم ، وعندما يصبح لهم وطن يناصبهم العداء جيرانهم ؟
- كانت أرض الله واسعة ، فلماذا لم يختاروا إلا فلسطين .
- لأنها كانت وطنهم ، أرض المعاد .
- من قال ذلك ؟
- لو قرأت التوراة لعرفت أن اليهود كانوا منذ نشأتهم الأولى في

فلسطين .

— لو قرأت التوراة بإمعان لعرفت أن فلسطين كان لها أصحاب قبل اليهود ، ولو سلمنا جدلاً أن اليهود كانوا في فلسطين وخرجوا منها وشرّدوا في الأرض ، أو يعطيهم ذلك حق العودة إلى فلسطين وتشريد أهلها ؟

فقلت في إصرار :

— أجل .

وهطلت الأمطار وزاد هبوب الرياح الباردة ، ووقف أنور وقال :
— على هذا القياس يكون للهنود الحمر حق طرد كم من أمريكا ، وتشرد كم لتسكنوا في الخيام لتصبحوا لاجئين .

— فرق كبير بين عودة اليهود إلى فلسطين ، وعودة الهنود الحمر .
— أحل فرق كبير حقاً ، فالهنود الحمر أصحاب البلاد ، أما اليهود فلم يكونوا أصحاب فلسطين .. أترضين أن يشرد الصهيونيون أكثر من مليون إنسان بين شيخ وعجوز وطفل ؟ أترضين عن القسوة والتعذيب والتكيلي التي حاقت بالفلسطينيين العزل ؟ لقد ذاق اليهود ذل الاضطهاد على يد النازية ، فلما أتاحت لهم الفرصة نسوا ما قاسوه وجرعوا الفلسطينيين من نفس الكأس .

— ما أهون هذا في تاريخ البشرية !

— هذه قسوة .. وحشية ، كان الصهاينة غلاظ الأكباد لم تعرف الرحمة يوماً طريقها إلى قلوبهم .

— ومتى كانت الرحمة وسيلة من وسائل تقرير مصير الشعوب ،
الزمن كفيل بحل مشكلة اللاجئين .

— كيف ؟

— سيفنون عن آخرهم يوما وتنتهى مشكلتهم .

واربد وجه أنور ، وجرت دماؤه حارة فى عروقه ، ولم يعد يحفل
بالمطر المنهمر على وجهه وقال :

— ما أيسر أن تتصورى ذلك ، ماذا يضريك لو مات مليون إنسان ما
دمت أنت فى أمان ؟ لو أنك ذقت مرة مرارة الكأس التى يتجرعونها كل
يوم ، ما خطرت مثل هذه الأفكار الخبيثة على قلبك .

ونظر إليها نظرة هائلة وقال فى غضب :

— الليلة ستدوقين طعم المر الذى يشربونه من سنين ، منذ ذلك اليوم
الذى أصبحوا فيه لاجئين .

— أنور . ماذا تريد أن تفعل فى ؟

— سأجعلك لاجئة مثلهم ليلة واحدة .

— أنت مجنون ! أتريد أن تتركنى بلا مأوى فى ليلة عاصفة مثل هذه ؟
أتريد أن تقتلنى ؟

فقال فى حنق شديد :

— ما أهون هذا فى تاريخ البشرية !

ووسع من خطوه والمطر ينهمر والريح تصفر وهى تهول وتصيح :

— هذه قسوة ، وحشية ، أنور .. أرجوك ، لا تتركنى هنا

— ٨٩ —

وحدى ، هذه جنابة .. سفالة .. أرجوك .. أرجوك ..
واندس فى سيارة وأغلق الباب فى وجهها ، وتركها والمطر يتساقط
والريخ تصفر والطريق خالية ، وهى تتلفت فى فزع ، وانطلق فى طريقه
لا يلوى على شىء .

مقدمة

كان عماد في زيارة ثقافية ليوغسلافيا ، زار مسارحها الجميلة المشيدة في الجبال في الهواء الطلق وشاهد الكولو ! رقصها الوطني الذي ينبض بالدفء والحياة ، وسمع موسيقاها الخلابة ، وصفق مع الشعب الذي كان يملأ المدرجات .

وانطلق في المساء إلى محطة بلغراد ليستقل القطار إلى رييكا ، وذهب من توه إلى سريريه في القطار ، ومضى الليل وأصوات اندفاع العجلات على القضبان تدوى في أذنيه ، وأخيرا رحمه النوم فراح في سبات . وفي الصباح استقل سيارة راحت ترقى به في الجبل حتى بلغت قمته ، ووقفت أمام فندق المنظر الجميل فهبط منها وصعد بضع درجات ، ثم التفت خلفه ، كان المنظر رائعا حقا ، بدت الدور عند أقدام الجبل وفي بطن الوادي كقطع من الياقوت نثرت على ثوب أخضر .

وتناول طعام إفطاره ثم عاد إلى السيارة فانطلقت به إلى كهف لوبليانا ، فهبط منها ووقف ينظر إلى جموع الناس الذين جاءوا من كل فج لزيارة ذلك الكهف ، وصوب نظره إلى حيث تذهب حشود البشر فألقى فجوة واسعة ، ولكنها بدت كثقب إبرة في الجبل الصخري الهائل

الذى سد جميع المنافذ .

ومشى إلى باب الكهف ، ودلف إلى قاعة فسيحة رطبة ران عليها ظلام لم يكن يبدده إلا ضوء خافت منبعث من بعض مصابيح كهربية متناثرة ، ووقف مع الواقفين ، حتى أقبل قطار صغير يجر عربات أشبه بالعربات المستخدمة فى المناجم ، فرأى الناس يقفزون إليها ، فأسرع يركب حتى لا يقف فى ذلك المكان الموحش وحده .

وانساب القطار فى الكهف ، واشتدت الرطوبة ، وانعكست بعض أضواء بخافته على الصخور عجزت عن أن تبدد ذلك الظلام الثقيل الذى يسيطر على المكان .

واستمر القطار فى سيره والدليل يتحدث ويقص قصة الكهف ، قال إن طوله ثلاثة وعشرون كيلومترا ، وأن الألمان اكتشفوه أثناء الحرب العالمية الثانية لما اشتدت المعارك بينهم وبين اليوغسلافيين ، وأن مطاردة عنيفة جرت فيه بينهم وبين الروس .

ووقف القطار ، وطلب الدليل من الناس أن يهبطوا منه فما عاد يستطيع أن يتقدم ، فأمامه صخور لا بد أن يعرج فيها على الأقدام ، وأضيئت مشاعل وراح الناس ينظرون على ضوءها ، كانت شعب كلسية تتدلى من السقف نحو الأرض ، وكانت أشبه بالسنة الشياطين ، وكانت بحيرات صغيرة من الماء متناثرة هنا وهناك ، وكسيت جدران الكهف بطبقة من الجير رسبت على مر السنين ، وكان من العجيب أن بعض أشكال فنية تكونت كأنما صنعتها يد فنان .

وقال الدليل إن الشعب المتدلية من السقف ، والعقود ، والأشكال الناصعة البياض التى كانت تبدو كالشموع ، والأشكال التى اتخذت هيئة أشجار وتماثيل ، تكونت فى ملايين السنين من الرواسب التى كانت تخترق سقف الكهف مع مياه المطر المتسربة من الشقوق .

ووقف عماد ينظر وهو مشدوه ، وكان البرد الذى كاد يخزم عظامه يخرج به من استغراقه فى تأمله اللذيد ، وخطر له أن هذا الكهف وحده يصلح لإنتاج قصة سينائية رائعة .

وانساب فى الكهف مع جموع الناس ، صعد إلى منحدر ، ومر فى مكان ضيق لا يسمح بمرور أكثر من إنسان ، ووقف على جسر عال ينظر إلى الروعة التى تحته : وملاء شعور بأنه ضئيل ، وأنه لا شئ فى هذا الملك العريض .

ثم عاد إلى القطار الصغير وهو ينتفض من البرد وجلس ينفخ فى يديه ، وأصبحت أمنيته أن يخرج إلى الدفء والنور ، وانطلق القطار فى ممرات ضيقة حتى كادت أكتاف الركاب تحتك بالجدران ، ودار دورانا حادا قبل أن ينساب فى المدخل الفسيح .

وخرج عماد وهو ينتفض من البرد ، ولمح الشمس الساطعة فهول إليها ووقف وهو يحرك رجليه ويفرك يديه كأنما يتعجل أن يسرى دفء الحياة فيه . وتناول طعام الغداء ثم انطلق بالسيارة إلى ريبكا على شاطئ البحر ، واستقل سفينة لتحملة إلى سبليت ، وأقبل الليل وتسرب الملل إلى نفسه ، إنه لا يستطيع أن يبقى طويلا فى حجراته الضيقة المغلقة التى

تكاد تعزله عن الدنيا بأسرها لولا تلك الطاقة المستديرة التى تطل على البحر ، فقام وارتدى ثيابه وصعد إلى سطح السفينة .

كان الرجال والنساء والأطفال ممددين على أرائك خشبية فى الهواء الطلق ، وكان بعض الناس يسندون رؤوسهم وهم جالسون على الأرض إلى حاجز السفينة ، وكان فريق آخر يتسامرون ويضحكون .

وتمنى عماد أن يتمدد على أريكة خشبية ، وعجب لتلك الأمنية التى طافت برأسه بينا فى حوزته أفخر غرفة فى السفينة يتمنى أى راكب من ركابها أن يسعد بها ساعة أو بعض ساعة ، وفطن إلى أن الإنسان يزهد دواما ما فى يده ويمد عينيه إلى ما فى أيدي الآخرين .

وظل يغدو ويروح طول الليل بين غرفته وسطح السفينة ، يصعد فى الدرج القريب من غرفته ويهبط فى الدرج البعيد ، ويجوس خلال جموع الناس ، ويتسلى بمحادثة من يجد نفسه مصادفة إلى جواره ممن يتحدثون الإنجليزية من الرجال أو النساء

ووقف السفينة عند أكثر مرفأ وهبط منها أناس وصعد إليها آخرون ، وكانت أشبه بالدنيا التى تلفظ أناسا لتستقبل واردين ، دون أن تحفل بالخارجين أو بالوافدين .

ووقفت السفينة عند مرفأ تبدو خلفه أشجار كثيفة باسقة ، والتفت رجل إلى عماد وقال له :

— خلف هذه الأشجار مستعمرة للعرايا .

— حقا ؟

وهز الرجل رأسه مؤكدا ، وأشرأب عماد بعنقه ونظر فلم ير شيئا ، حتى خياله عجز عن أن يتصور ما يجري هناك ، كل ما أمكنه أن يحسه أن الإنسان يحن دواما إلى العودة إلى طفولته ، ولكن هيهات !

وبلغت السفينة سيليت مع الفجر ، وهبط ركابها إلى الرصيف وكان موازيا للشارع الرئيسى فى المدينة ، وذهب عماد إلى فندق بارك وكان على بعد خطوات من شاطئ الاستحمام ، فراح يشق طريقه بين جموع الناس الذين جاءوا ينعمون بماء البحر وشمس الصيف والهواء الذى ينعش النفوس .

وارتمى فى فراشه بملابسه ، حتى إذا ما استراح قليلا أسرع إلى الشاطئ ليشترك الناس لهوهم ، وإذا به يجد الشاطئ صخرى ، وقاسى من صخور القاع التى كانت حادة كالسكاكين ، لم يجد شاطئاً رملياً يرتقى فى أحضانه فعاد من حيث جاء .

وفى الليل عاد إلى حيث رست السفينة ، فحى الميناء هو الحى الناض بالحياة ، وألقى مقاهى كثيرة منتشرة على طول الشاطئ وقد غصت بالأجانب والوطنين ، وعثر على مقهى فى فناء واسع به أكثر من شرف يصعد إليه ببعض السلم الواسعة ، ويطل على الفناء بيوت قديمة ، فجلس يشرب القهوة ويدير عينه فى رواد المقهى ، وكان أغلبهم من الأمريكان والأوروبيين الذين جاءوا يمشون إجازاتهم على الشاطئ .

ولم يطق الجلوس طويلا ، فراح يجوس خلال الأزقة الضيقة الواقعة خلف المقهى . وكانت نقود إلى كنيسة قديمة ، فكانت أغلب الحوانيت

فيها تبيع هدايا دينية ومداليات تذكارية مطلية بالميناء ، وكانت الدور عتيقة تفوح منها رائحة القدم السحرية .

وراح يزور المسارح ودور السينما والآثار ، وفي عصر اليوم التالي انطلق في سيارة إلى المطار فبلغه بعد أن قطع في طريق وعراً أكثر من ساعة ، وبعد أن جاس خلال قلعة تركية بنيت على ربوة عالية تتحكم في الشريان الوحيد المنساب بين الجبال ، والذي يصل الميناء بداخل البلاد .

ووقف وحده على أرض المطار يتلفت ، حسب أنه جاء بعد أن طارت الطائرة فذهب يسأل فليل له إن الطائرة ستأخر ساعة ، فانطلق إلى البوفيه يتناول قدحا من الشاي .

وهبطت الطائرة في المطار وكان أشبه بملعب كرة يكسوه العشب الأخضر . فحمل حقيبته وخف إليها وحده ، وصعد في سلم صغير فوجد نفسه أمام المضيقة اليوغسلافية وجهها لوجه .

كانت ترتدى ثوب الطيران الكحلي ، وكانت بيضاء البشرة . تميل إلى القصر قليلا ، جذابة ، وكان أجمل ما فيها خفة ظلها وابتسامتها اللطيفة التي تستقبل الركاب بها .

وحياها ونظر في الطائرة فلم يجد فيها إلا راكبين ، فالتفت إليها وقال :
— شكرا على حفاوتكم البالغة لي ، ما كنت أحسب أنكم سترسلون إليّ طائرة خاصة لتعود بي إلى بلغراد .

فأشرق وجهها بابتسامة ، ووقفت تنظر إليه وهو يفحصها في جراءة عجيبة ، وقال :

— ٩٦ —

— ما أسعد حظى فى هذه الرحلة !

— لماذا ؟

— لأننى سأحظى بمضيعة جميلة ساعتين ، لن تحتفى خلالهما بأحد
غيرى .

— ساعتان ؟ أى منذ أن تقلع الطائرة إلى أن تخط فى مطار بلغراد .
— نعم .

— والراكبان الآخران ؟

— نالا حظهما منذ بدأت الرحلة ، حتى وصلا إلى هنا .
فقالت وهى تبتسم :

— معقول .

— أرايت ! إئنى رجل عادل ، آخذ حقى وأعطى الناس حقوقهم .
— اربط الحزام .

فقال وهو ينظر إليها فى رقة :

— ما دمت هنا فأنا فى أمان .

وذهبت إلى الراكبين الآخرين وطلبت منهما أن يربطا حزام الأمان
قبل أن تتحرك الطائرة لتحلق فى الجو ، وعادت وجلست إلى جواره ،
وارتفع أزيز المحركات حتى لم يعد يسمع إلا أصواتها ، والتقت العيون
أكثر من مرة ، ورفت على الشفاه الابتسامات .

واستوت الطائرة على الهواء ، وقامت المضيعة تقدم إلى الركاب بعض
المرطبات ، وسرعان ما عادت تجلس بجواره تحدّثه ويحدّثها ، قال لها :

— ٩٧ —

— روحى انجذبت إلى روحك منذ أول لحظة وقعت فيها عيناي عليك .

— إني عاجزة عن أن أتصور هذا .

— لماذا ؟

— لأننى لا أومن بالروح .

وكان يعرف باقى الحديث جيدا فلقد سمعه من كل الفتيات اللاتي قابلهن فى أوروبا ، كن أشبه بطلبات فى مدرسة تلقين درسا واحدا حفظنه عن ظهر قلب ، فقال لها ليعطيها فرصة إتمام رأيها الذى لقتته تلقينا .

— وبم تؤمنين ؟

— أومن بما ألمسه بيدي ، بما أراه بعيني ، بما أشمه بأنفى ، بما أذوقه بلساني ، بكل ما ألمسه بحواسي .

— وما سر انجذاب إنسان لإنسان ؟ ما الذى جعل نفسى تتفتح لك حتى تملأنى رغبة طاغية فى أن أتحدث إليك ؟ وما الذى جذبك إلى هذا الكرسي وجعلك تفضلين الحديث معى على الحديث مع غيرى من الركاب ؟ إن سر هذا الانجذاب أن روحى هفت إلى روحك ، وأن روحك استجابت لنداء روحى قبل أن تنفرج الشفاه عن كلمة .

— ربما .

— ألا يحدث عندما تمتلىء الطائرة بالركاب أن تحسب انجذابا إلى راكب

بعينه دون باقى الركاب ؟

(ليلة عاصفة)

— ٩٨ —

فهزت رأسها موافقة ، فقال لها :

— لماذا ؟

— لا أدري .

— لأن روحك وروحه ائتلفتا .

— ربما ، لست واثقة .. ولكنني واثقة بكل ما يحسه جسدي .

فقال وهو يتسم :

— وأنا واثق من أني أستطيع أن أرضي روحك وجسدك معا .

فقالت في دهش :

— أوه ! . من كان يصدق أن نصل إلى هذا ولم تمض عشر دقائق على

لقائنا ؟!

— كنا سنصل إليه بعد ساعة أو بعض ساعة ، وأظن أنه من الأفضل

في مثل عالمنا الذي يعدو في جنون ، أن نختصر الوقت .

وصممتا قليلا ، ثم قال لها :

— زرت بلادا كثيرة ؟

— نعم .

— واكتسبت تجارب كثيرة ؟

— التجارب ليست كثيرة ، إنها تتكرر وقلما تتنوع .

— زرت مصر ؟

— زيارات عابرة قصيرة .

— وما هي تجاربك هناك ؟

— ٩٩ —

— تكاد تكون معدومه ، إني أصل إليها في الليل ، وأذهب في رفقة قائد الطائرة إلى فندق الوادى الأخضر حيث أرتنى في فراشى لأستريح من التعب .

وصمتت وهى تنظر في عينيه ، ثم قالت :

— أتعرف فندق الوادى الأخضر ؟

— لا .

— إنه في مصر الجديدة .

— وماذا رأيت في القاهرة غير الفندق وقائد الطائرة وسيارة الشركة التى تنقلك من المطار إلى الفندق ؟

— لا شىء .

— سأكون دليلك في القاهرة ، وسأكشف لك عن سرها وسأجعلك تلمسين بحواسك سحرها ، وسأضيف إلى تجاربك تجارب جديدة .

— وكيف ستجدنى ؟

— سأنتظرك في مطار القاهرة .

— وكيف ستعرف ميعاد وصول الطائرة ؟

— ما أيسر الحصول على مواعيد الطائرات اليوغسلافية .

— لست المضيفة اليوغسلافية الوحيدة التى تعمل على هذا الخط ، هناك ثلاث مضيفات أخريات .

— سأحتفى بجميع المضيفات اليوغسلافيات إكراما لك .

وتبسمت وقالت :

— على فرض أنك عثرت على فلن نستطيع أن نتقابل ، لأنى سأذهب
فى رفقة قائد الطائرة إلى الفندق .

— سأذهب خلفكما بسيارتي ، ثم أطرق باب غرفتك بعد أن يدخل
قائد الطائرة غرفته ، وأنسل داخلا لأسعد بقلياك .

— سأكون مجهدة أكاد أموت من التعب ، فما إن أدخل غرفتي حتى
أرتقى فى فراشى وأروح فى سبات .

— يكفينى أن أحدثك ، وأن أنظر إليك ، وأن أمرر يدي على شعرك
الأسود الجميل حتى يطوف النوم بعينيك ، فأغطيك وأطبع على خدك
قبلة ، وأغادر الغرفة على أطراف أصابعى كملاك طاهر برىء .

— أنت شيطان ، لا أدرى كيف جرفتني إلى هذا الحديث .

— وما هى البلاد التى زرتها وأمضيت فيها وقتا طويلا ؟

— إنجلترا .. تلقيت فيها بعض دروسى .

— وما رأيك فى الشاب الإنجليزى ؟

— اشتهر بالبرود ، ولكننى وجدت أنه لا يختلف عن غيره من شباب
البلاد الأخرى .

— والفرنسى ؟

— لا فرق بينه وبين الإيطالى أو الإنجليزى أو اليوغسلافى ، أو غيره
من رجال البلاد التى كان لى بها ما تطلق عليه التجارب .

فقال وهو يهز رأسه موافقا :

— ١٠١ —

- قال حكيم : كل النساء سواء إذا ما أطفئ النور .
ونظر إليها وقال :
— وأين ستمضين الليلة ؟
— فى فراشى . إنى أعمل منذ الصباح الباكر وأكاد أنوء من التعب .
— يمكنك أن تنامى من الآن حتى الثانية عشرة .
— وبعد ذلك ؟
— تأتين لمقابلتى . سأنتظرك فى فندق المتروبول لتناول العشاء معا .
— لا أستطيع .
— هل سيمنعك أهلك من الخروج ؟
— أسكن مع صديقة لى .
— لا أهل لك فى بلغراد ؟
— أمى فى بلغراد ، ولكنها تسكن وحدها ، وأسكن مع صديقتى بعيدة عنها .
— جميل . سنلتقى فى الثانية عشرة فى فندق المتروبول ، وسنقضى سهرتنا فى النادى الللى .
— لن آتى .
— أنا واثق من أنك ستحضرين .
ورمقته بنظرة فاحصة وهى تقول :
— أنت واثق من أشياء كثيرة .
وأضيئت الأنوار التى تطلب ربط الأحزمة استعدادا للهبوط ،

— ١٠٢ —

فقامت لتمر على الركاب الآخرين فقال لها :

— سأنتظرك في الساعة الثانية عشرة .

فهزت رأسها نفيا وهز رأسه تأكيدا ، وراحت الطائرة تهبط في مطار بلغراد واستقرت على الأرض ، ووقفت المضيقة عند بابها وإلى جوارها شاب آخر من العاملين معها لتوديع الركاب الثلاثة .

وحمل عماد حقيبته وسار بين المقاعد ، فلما وصل إليها قال في رقة :
— شكرا على هذه الرحلة الممتعة التي لا تنسى .

— مع السلامة . وداعا .

— بل إلى اللقاء . سنلتقى كثيرا ..

ولاحظ أن الشاب الآخر يرمقه في اهتمام فقال :
— على الخطوط اليوغسلافية .

وهبط من الطائرة وراح يوسع من خطوه ، ونادى سيارة واندس فيها ، وانطلق مسرعا إلى الفندق ليستريح قبل أن يستأنف حياة الليل التي ينشرح لها صدره ، وتفتح لها نفسه .

وفي العاشرة مساء ارتدى ثيابه وهبط يتمشى في الطريق الذي يقع الفندق فيه ، وما ابتعد حتى التقى بأحد رفقاته ، فراح يذرعان الشارع معا وهما يتحدثان ، وراح عماد يقص قصة رحلته التي انفرد بها ، وراح الزميل يقص عليه ما فعلوه في أيام غيابه ، ووصلا إلى مبنى البرلمان ، وكان على جانبي المدخل تمثالان رائعان أحدهما يمثل حصانا وضع رجله الأماميتين على كتف فلاح والآخر يمثل نفس الحصان ولكن الفلاح

— ١٠٣ —

استدار له ورفع رجليه الأماميتين على كفيه في قوة وعزم ، ووقف الزميل
ينظر إلى التمثالين مدة طويلة ثم قال :

— لا أفهم الفكرة من هذين التمثالين .

فقال له عماد وهو يرفع رأسه ينظر :

— التمثال يمثل السلطة في أيام الظلم وقد ركبت الشعب ، والتمثال

الثاني يمثل الشعب في أيام العدل وقد رفع السلطة يديه .

فقال الزميل في حدة :

— ولكن الحصان راكب في الحالتين .

— وماذا تريد ؟

— أن يركب الفلاح الحصان .

— لو ركب الشعب السلطة لكانت الفوضى .

— لو أراد التعبير عن هذا المعنى لكان عليهم أن يختاروا شيئاً آخر غير

الحصان ليرمزوا به إلى السلطة ، لأن من غير المؤلف للعين أو للعقل

تصور أن حصاناً يركب رجلاً ، أو أن رجلاً يرفع حصاناً بساعديه .

— الويل للفنون من طوال الألسنة وقصار العقول .

وبلغا في سيرهما شارع المارشال تيتو ، وكان غاصا بالناس الذين

يتسلون بقطع الطريق ذهاباً وإياباً ، أو بالمنطلقين إلى الحديقة الواسعة

الواقعة عند أحد طرفيه ، والتي تخفق جنباتها بأنفاس العاشقين .

ونظر عماد في ساعته ، واستأذن من زميله في الانصراف بحجة أنه

ذاهب إلى فراشه يستريح ، وانسل بين الجموع وانطلق عائداً إلى الفندق

ينتظر .

وأشرفت الساعة على الثانية عشرة ، فجلس إلى مائدة يمكنه منها أن يرصد الداخلين ، وما أن أشارت ساعته إلى انتصاف الليل حتى ألفاها مقبلة في ثوب أنيق ، فأحس زهوا وخف إليها يستقبلها ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة قالت له :

— لا تقل لى فى انتصار إنك كنت واثقا من حضورى ، فما ترددت فى الحضور وما رفضت الفكرة ، ولكننى كنت متعبة ، فلما أخذ جسمى نصيبه من الراحة جئت .

فقال لها فى رقة :

— المهم أنك هنا ، وأنتك معى الآن .

وعادا إلى المائدة ، وأشار إلى الجرسون فخف إليه ، وانحنى قليلا وقد أمسك فى يده اليسرى كراسية صغيرة وفى يده اليمنى قلما من رصاص وتأهب لتدوين طلباته .

قال له عماد :

— ما هو أشهى ما عندك الليلة من طعام ؟

فقال الجرسون فى فخر :

— لحم بغال .

وأنكر عماد ما سمع ، فقال فى دهش :

— لحم بغال ؟

فقالت له فى بساطة :

— ١٠٥ —

— هذا الصنف لا يقدم إلا للضيوف الأعراء ، للتعبير عن شدة الحفاوة بهم .

وهز رأسه في ريبة وقال :

— لحم بغال للآنسة ، أما أنا فأى صنف من أصناف السمك .

والتفت إليها وقال :

— ويسكى ؟

— أفضل النيذ على الطعام .

ودون الجرسون كل ما طلب وانصرف ، واعتدل عماد وراح يلتهمها

بعينه ، ثم قال لها :

— شكرا لك على مجيئك .

— بل شكرا لك على دعوتي .

— قلت لى فى الصباح إنك تسكنين مع صديقة لك ؟

— نعم .

— فى غرفة واحدة أم فى غرفتين متجاورتين ؟

— فى غرفة واحدة .

— وإذا حدث أن جاء إلى إحداكما صديق فماذا تعمل الأخرى ؟

— إنا لا نستقبل أصدقاءنا فى البيت .

— وقلت لى إن لك أما فى بلغراد ؟

— نعم .

— فلماذا لا تعيشين معها ؟

— ١٠٦ —

— أحب أن أعيش حرة .

— وأبوك ؟

— مات وأنا لا أزال طفلة .

— وتزوجت أملك رجلا آخر من غير شك .

فنظرت إليه نظرة طويلة ثم قالت له :

— لم أسألك عن مهنتك ولكنى أستطيع الآن أن أخمن ، إنك تعمل

في الشرطة أو في المباحث .

فتبسم وقال :

— لا ، خانتك فراستك .

— فماذا يكون عملك وأنت دائم السؤال عني وعن تجارتي وعن

الشاب الإنجليزي والشاب الفرنسي والشاب الإيطالي ، وعن

صديقتي ، وعن أمي ، وعن أبي ، إن لم يكن له صلة بالشرطة أو

المباحث ؟

— قصاص ، أعيش من كتابة القصص .

فقالت وهي تهز رأسها في استخفاف :

— تعيش على مآسى الناس ، على فضائحهم ، تتلمس نقط الضعف

فيهم ، لا تتردد في أن تعرض أعز الناس عندك عرايا على أنظار قرائك ،

لا تحفل بضحايك وقد تدوسهم بأقدامك في قسوة ، ما دام في ذلك بناء

مجدك .

— إنى ألقى الأضواء على النفس البشرية ، أصور مآسى الناس لأزيد

من تجارب الآخرين ، ولأجنبهم دون أن أعظمهم وعظما قد يكون ثقيلًا على قلوبهم قسوة تجارب الذين تجرعوا كؤوس الحياة المريرة . وإنى عندما أصور شخصية سواء أكانت طيبة أم شريرة أحبها حبا يفوق حبي لأصدقائي .

— لأنك أنانى لا تعرف من الحب إلا حب نفسك ، فالشخصيات التى تصورها ما هى إلا صور من ذاتك ، أو جوانب ضميرك .
— لا أكتب عن شخصية إلا إذا أحسست تعاطفا معها وأحببتها من أعماق قلبي .

ودفعت كرسيها إلى الخلف وهى تقول :
— آسفة ، لو كنت أعرف قبل أن آتى أنك تبحث عن قصة ، وأن اهتمامك بى لم يكن من أجلى أنا بل من أجل المادة التى قد أمدك بها ، ما جئت .

فقال لها وهو يرنو إليها فى استغراب :
— لا أستطيع أن أفهمك .
— بل تفهمنى جيدا ، هناك فتيات كثيرات يفرحن أن يكن مصدر وحي لصورة أو لوحة أو قصة ، فتيات يعشن فى الأوهام ، أما أنا فأمقت ذلك كل المقت ، لأنى أكره الجرى وراء الخيال ، لا أحب أن أضحي بنفسى ولا بسعادتي فى سبيل سراب خداع .
— أى سراب ؟

— أعرف أن الفنانين من أمثالك لا يعرفون كيف يسعدون ،

- ولا كيف يسعدون من يوقعهم حظهم العاثر في طريقهم .
- هذا أغرب رأى سمعته ، فالفنانون أرهف الناس حسا ، وأرقهم قلبا ، وأكثرهم تفتحا للحب ، والسعيدة من تعلق بحبها قلب فنان .
- فقلت وقد شردت ببصرها كأنما ترصد شبحا بعيدا :
- الفنان ييخل بمشاعره على من يحب ويدخرها للمعجبين بفنه والمعجبات ، إنه كشريط يسجل فى صمت ويذيع بأعلى الأصوات .
- من أين لك هذه الأفكار الغريبة ؟
- كانت لى تجربة مريرة ، تجربة مثل التجارب التى تدعى أنك تسجلها لتقى الآخرين من التردى فيها . كانت مع رسام .
- ونهضت وهى تقول فى زراية :
- مصادفة غريبة أن ألتقى بفنانين وأنا فى عمر الورد !
- فنهض وقال :
- إلى أين ؟
- وداعا .
- ألا تنتظرين حتى تتناولى عشاءك ؟
- أقسمت ألا تكون لى صلة يوما بفنان .
- أرجوك ..
- وتحركت لتغادر المكان ، ثم التفتت إليه وقالت :
- أرجوك ألا تكتب قصتى .
- لماذا ؟

— ١٠٩ —

فقلت فى سخرىة :

— لأن بها مصادفة مقابلى لفنانىن ، والمصادفات كما سمعت مما تقوض
الأعمال الفنية ؟

وسارت فى عزم ، ولم يفكر فى أن ىجرى وراءها بل جلس فى حنق ،
وأقبل الجرسون ووضع أمامه طعامهما ، فنظر إلى اللحم البغال وكان لونه
أحمر شديد الحمرة ، وما كان فىه ما يؤذى النظر ، ولكن تفرزت نفسه ،
فدفع الحساب وانصرف دون أن يتناول شىئا .

على أنقاض برلين

كانت الساعة التاسعة مساء . وكانت أضواء مصابيح الشوارع في برلين الشرقية خافتة ، وكان السكون مخيما يبعث الملل ، وسار عبد الرحمن في الطرقات القرية من محطة السكة الحديدية مطرقا لا يدرى سبب ذلك الضيق الذى يقبض صدره ، وتمنى أن يسمع أى صوت يؤنس وحشته ، ولو صوت بومة تنعق في الخرائب التى نبتت في بعض جنباتها أعشاب خضراء متطفلة أرادت أن تبث الحياة في أنقاض دور زهقت روحها .

وخطر له أن ينطلق إلى برلين الغربية يسعد بالسهر هناك ، ثم يعود إلى فندقه ، وكان يبغضه فيه تلك الممرات الطويلة التى تفصل بين غرفته والحمام الذى لا يفتح إلا بإذن خاص ، والتى كان يذرعها كل صباح ، وهو يحمل على ذراعه ملابسه الداخلية ، ولكنه وأد ذلك الخاطر ، وقرر أن يتعشى في مكان قريب ثم يعود ليناام ، فالنوم الذى يحول بين المرء ومضايقات الحياة قد يصبح قمة المتعة التى يشتهيها إنسان !

ومشى تحت جسر تنطلق فوقه القطارات ، وراح يتلفت ، فالفى مطعما غاصا بالناس فدلّف إليه ، وسار بين المناضد التى صفت فوقها

الأطعمة وككوس النبيذ وأكواب البيرة ، ووصل إلى مائدة خالية في ركن بعيد فجلس ، وما كاد يستقر فوق كرسیه حتى خف إليه الجرسون وراح يتحدث بالألمانية ، وفهم عبد الرحمن ما يبغى ، إنه يريد جواز سفره ليتأكد من أنه مقيم في برلين الشرقية قبل أن يقدم له ما يطلب من طعام . وأخرج عبد الرحمن من جيبه جواز السفر وفتحه ، وأشار بأصبعه إلى تأشيرة الإقامة التي تؤكد أنه ليس من نزلاء برلين الغربية الذين يفدون بالمترو ليستفيدوا بالفرق الهائل بين العملتين .

واطمأن الجرسون ووقف ينتظر ، فقال له عبد الرحمن :

— أتتكلم الإنجليزية ؟

فقال الرجل بالألمانية :

— لا .

وظل يتحدث ويشير إلى زميله الذى يعمل معه فى المطعم . ففهم عبد الرحمن أن الجرسون الآخر هو الذى يفهم الإنجليزية وأنه عما قليل سيأتى لخدمته . وذهب الجرسون وسرعان ما عاد بزميله الذى وقف ينتظر أوامر عبد الرحمن فى ثقة ، قال عبد الرحمن :

— أتفهم الإنجليزية ؟

فقال وهو شاخ بأنفه :

— نعم .

— أريد روستو ، أى لحم إلا لحم الخنزير . أتفهمنى ؟

— نعم يا سيدى .

— ١١٢ —

وعاد عبد الرحمن يؤكد له :
 — لا أريد لحم خنزير ، أتفهمنى ؟
 — نعم يا سيدى .
 — شكرا .

وانصرف الجرسون ، وراح عبد الرحمن يتسلى بمراقبة الناس ، كان أغلبهم من العمال والعاملات . وكانوا جماعات ، ولم يكن فى القاعة الواسعة من يجلس وحيدا إلا هو وسيدة تبدو عليها الأناقة . كانت تجلس إلى مائدة بجوار مائدته ويكاد كتفه يلمس كتفها .

كان شعرها أصفر وبشرتها بيضاء ، وكانت ممتلئة قليلا ، وعلى الرغم من المساحيق وأحمر الشفاه والأسود الذى ظلل الجفون واليد الفنية التى نشرت على صقحة الوجه لمسات تبرز الجمال ، كانت تجعدات العنق تؤكد أنها جاوزت الأربعين .

وأقبل الجرسون ووضع أمام عبد الرحمن صحيفة بها قطعة كبيرة من لحم الخنزير ، وابتسم ابتسامة عريضة ، وتأهب لسماع كلمات الشكر ، وإذا بعبد الرحمن يقول فى غضب :
 — قلت لك لا أريد لحم خنزير !

وراح الجرسون ينظر إليه فى بلاهة ويتحدث بالألمانية ، وضاق عبد الرحمن ذرعا بما يجرى فى المطعم ، وزاد فى ضيقه أن الجرسون الآخر أقبل راح الرجلان يتحدثان دون أن يفهم مما يقولان حرفا ، وهسم بالانصراف ، وإذا بالسيدة الجالسة وحدها إلى جواره تقبل نحوه وتقول



أسمح لي أن أكون دليلك الليلة ؟

(ليلة عاصفة)

— ١١٤ —

— أأسمأ إلى أن أكون دليلك الليلة ؟

— بكل سرور .

وأأأأ إلى أأرسون وأأأ بالأأأأ :
— السيد لا يريد أأ أأأأ ، يريد أى أأ إلا أأ أأأأ .

فأأ أأأأأ في عأأ وأأأأأ رأسأأأ :
— آه .

وأأأ أأأأأ أأ أأأأ من أأأأ ، وأأأأ وأأأأ في أأأه ،
وأأأ السيدأ لأأأ أأأأ :

— أأسمأ إلى بأأأأ ؟

— أأأ أأأ عأأأ إلى .

فأأأ وأأ أأأأ إلى أأأه :

— أأأأ .

فأأ أأأ وأأ أأأأ في أأأأأ أأأأأأ بأأأه :

— أأأ أأأأأ ؟

— أأأأ ؟ أأأأ عأأأ .

وأأأأ في عأأه وأأأ :

— أأأ ؟

— أأ .

— من أين ؟

— من أأأ .

فقالت فى شرود :

— العلمين !

كأنما كان هذا كل ما توحىه مصر إليها ، وساد الصمت بينهما قليلا

ثم قالت :

— ماذا تفعل فى برلين ؟

— جئت أوقع عقدا مع إحدى الشركات الألمانية ، استمرت

المفاوضات بيننا ثلاثة أيام ولم تنته بعد ، وقد تستمر أربعة أيام آخر ، وقد بدأت أضيق بوحدتى .

— وحدك فى برلين ؟

فهبز رأسه أن نعم وقال :

— ما أقسى الوحدة !

واربد وجه السيدة ، ولاح فيه حزن وأسى ، واستشعر عبد الرحمن

أنه مس جرحا فى نفسها فقال :

— وأنت .. من أين ؟

فابتسمت ابتسامة تقطر مرارة وقالت :

— لست أدرى .

ولاح الدهش فى وجه عبد الرحمن وقال :

— كيف ؟

فقالت وهى شاردة وفى نبرات صوتها حزن عميق :

— أنا ألمانية مجرية برازيلية ، إننى ضائعة .

— ١١٦ —

وأراد عبد الرحمن أن يخرجها من ذلك الهلع الذى أطل من عينيها ،
قال :

— وما الذى جاء بك إلى هنا ؟

— الحنين ، جئت أزور ما كان فى يوم ما بيتى ، وأسير فى الطرقات
التي شهدت حب طفولتى وصباى ، وأشم عبير ماضى الذى كان مشرقا
بالأمل . خافقا بأعذب الرؤى والأحلام .

وجاء الجرسون ووضع أمام عبد الرحمن صحيفة بها قطعتان من لحم
الضأن ولا شيء آخر ، وراح عبد الرحمن يأكل والسيدة ترقبه فى صمت
ثم قالت :

— ماذا ستفعل الليلة ؟

— لا شيء .

— تعال معى فى جولتى .

ونظر إليها دون أن يرفع رأسه عن الطعام ، هزته البساطة التى تدعوه
بها ، وقبل أن يفتح فمه بكلمة قالت :

— مرارة الوحدة فى فمى ، وقسوتها تلسع روحى ، وهذا ما دفعنى
إلى أن أدعوك لتشاركنى فى جولتى ، لأجنبك ذلك الشقاء ولو لليلة
واحدة .

فقال فى صوت متهدج :

— شكرا .

وانتهى من تناول طعامه ، وغادرا المطعم ، وراحا يسيران فى طريق

خيمت عليه الكآبة ، كانت جميع الحوانيت مغلقة ، وكان الضوء المنبعث من المصابيح شاحبا واهنا كأنما كان زفرات قلب مريض .
ووقفت عند أرض فضاء لم يكن بها إلا بعض أعشاب تناثرت هنا وهناك ، ثم لا شيء غير السكون وكان أشبه بسكون الرموس ، وراحت تجيل عينها في المكان وقد ترقرت فيهما الدموع ، ثم التفتت إليه وقالت في صوت مشحون بالانفعال :

— هنا كان بيتي .

وشردت بصرها ولاح في وجهها سهوم ، كانت تسترجع صور الماضي ، وهزت رأسها وقالت وهي تنفس بصوت مسموع :
— هنا عشت أسعد أيام حياتي ، هنا ذقت أرق مشاعر الحنان ، هنا خفق قلبي أول ما خفق بالحب ، كنت أقيم في هذا البيت كفراشة طليقة خالية البال أرشف رحيق حب أبوي ، وألعب مع صواحيبي ، وأذهب إلى المدرسة وما كانت تبعد عن منزلي هذا إلا بضعة أمتار .

والتفتت صوب خربة بعيدة قليلا ، وأشارت بأصبعها وهي تقول :
— كانت هناك .

ثم عادت تنظر إليه وتقول :

— وكانت هذه كل دنياي ، دنيا على الرغم من ضيق رقعتها مفعمة بالأمل ، فسيحة بالرجاء ، زاخرة بأنبل العواطف وأرق الإحساسات .

وصمتت قليلا ثم قالت :

ومرت السنون رقيقة كالنسيم ، عذبة كالأحلام ، وتفتحت كما تفتت

الورود في الربيع ، واتسعت رقعة دنياى ، أصبحت برلين كلها .
 واتسعت آفاقى ومداركى فكنت أهرع مع الشباب إلى كل احتفال من
 احتفالات النازى ، وأصفق في حماسة لكل عرض يقوم به الجيش
 الألمانى ، وأهتف مع الجماهير لهتلر هتافات صادرة من أعماقى . وتعلق
 قلبى بشيء آخر غير تعصبى للرايخ الثالث ، تعلقت بالأوبرا التى كانت فى
 حيننا هذا ، والتى كانت تنبض بالحياة وتفيض علينا بالنور والإشراق .
 وصرت أتردد على دار الأوبرا ، وتوطدت بينى وبين مغنياتها صداقة
 وطيدة ، ويا طالما حلمت بأن أكون نجمة من نجومها ، ولن أنسى ما
 حييت تلك الليلة التى وقفت فيها على خشبة المسرح أغنى لمقاعد الصالة
 الخالية قبل أن يسمح بدخول الجمهور ، سمعت ليلتها التصفيق يدوى فى
 أذنى من أرجائها ، وأدهشنى ذلك الوهم ، وأخذت أقلب عيني فى
 المقاعد والمقاصير وإذا بخيالى يقهر واقعى ، فلا أرى إلا بعينه الجمهور وقد
 غصت الأوبرا به ، وهو يصفق لى فى حماسة طاغية .

وسارت فى الطريق المتجه إلى دار الأوبرا ، كان مقفرا وكانت الكآبة
 تخيم عليه ، ولكن الذكريات كانت تضىء أرجاء نفسها فكان حديثها
 وضياء ينسكب فى روحه ، ويشيع فيه رضا .

وسارا الهوينى جنبا إلى جنب ، وقالت فى انفعال :

— وما كنت أحسب أن مستقبلى قد ارتبط بالأوبرا ، لم يكن على
 خشبة مسرحها بل كان فى مقعد من مقاعدها . كنت ذات ليلة أرقب ما
 يجري على المسرح وأنا مسحورة بروعة الأحسان التى كانت ترفعنى إلى

السموات العلا ، وانتهى المشهد وأنزل الستار وأنا مفعمة بالنشوة ،
عائمة فى عالم صيغ من الرؤى العذاب ، ولم أفق من أحلامى إلا على
صوت جارى الذى قال بلكنة أجنبية : « هذه روعة ؟ » ، فنظرت
إليه ، كان شعره أسود فاحما ، وعينه سوداوين تشعان بريقا يخطف
القلب ، فاستشعرت كأن أنامل رقيقة راحت تعبت بأوتار فؤادى ،
وانفجرت شفتاى عن بسملة عذبة أحسست طعمها فى وجدانى ،
وأقبلت عليه وأنا متفتحة النفس أحادثه ، لم يكن ألمانيا بل كان قادما من
البحر يقضى فى برلين بضعة أيام .

وعقب انتهاء السهرة خرجنا معا ، ورحنا نجوب فى أرجاء برلين ،
وقبل أن ننصرف ليعود كل منا إلى مقره تواعدنا على اللقاء . وترادفت
مقابلاتنا ، وشغفت به حبا . ولم يعد فى حياتى شىء سواه ، وقدمته إلى
أبى وأمى ، وفى ذات يوم عقب عودتنا من نزهتنا انفردت بى أمى
وسألتنى عما ستؤدى إليه هذه الصداقة فقلت لها : لست أدرى ،
وفاضت مشاعرى حتى أننى بكيت ، وأخفيت وجهى فى صدر أمى وأنا
أردد فى انفعال :

« أهواه .. أهواه .. أهواه » .

ولم يبق على رحيله إلا ثلاثة أيام فلم نكن نفرق لحظة ، خيل لى أن
هذه الأيام هى كل ما بقى من حياتى فلم أعد أتخفظ فى إظهار حقيقة
مشاعرى ، كنت أحسب أننى وحدى المتلذذة بنار الصباية ، وكما كانت
دهشتى عندما قال لى إنه لا يستطيع أن يعيش بدونى ، وعرض على أن

نتزوج وأن نعود إلى بلاده معا .

كدت أطير من الفرح ، نسيت أهلى ووطنى وكل ما يربطنى بهذا الوجود ، ولم أعد أذكر إلا أننى سأكون دواما معه ، مع من خفق بحبه قلبى .

وعدت إلى دارى وأنا مفعمة بنشوة لذیذة كادت تخدر كل حواسى ، وأعلنت لأبى وأمى النبأ . لم يفرحا به وتلقياه فى وجوم ، ولما أفاقا من المفاجأة راحا يحاولان أن يبصرانى بمساويع ما أنا مقدمة عليه ، ولكننى أغلقت نفسى دونهما . كان حبى له يملأ كل جوانحى ، فلم يكن هناك وزن لأى اعتبار غيره .

وقالت لى أمى إننى سأفقد جنسيتى بهذا الزواج وسأحمل جنسيته ، وراحت تحدثنى عن الجنس الآرى وفضائله ، فقلت لها إننى سأحمل جنسية الحب الخفاق ، ولم تستطع دموع أمى ولا توسلات أبى أن تثنيى عن عزمى ، وأخيرا خضعا لإرادتى .

وفى كنيسة حينما عقد القران ، وفى لحظة أصبحت له زوجة ، وفقدت جنسيتى وحملت جنسية من خفق بحبه قلبى ، صرت هنجارية قبل أن تطأ أرض المجر قدمائى .

وحانت ساعة الوداع ، وراحت أمى تذرف الدموع ، وبكى أبى ، وارتميت فى أحضانها وعبرائى تخنقنى ، وكدت أضعف ، ولكن ما أن مد يده وجذبنى فى رقة حتى تبخرت كل مخاوفى وأحزائى وسرت معه لا أرى شيئا سواه .

وذهبنا إلى بودابست ، ورحنا نهم فيها ، والسعادة تخفق في قلوبنا ،
والنشوة تملأ جوانحنا . أمضينا ليالى شاعرية في زورق يتهادى في الدانوب
الأزرق ونحن نتعاقق ، ونتبادل القبل ، ونرسم لمستقبلنا صورة مشرقة ،
مفمة بالأمل ، نابضة الرجاء .

ويا طالما أخذنى إلى مطعم متياس لتتناول طعاما هنغاريا ، ونشاهد
رقص العجر ، ونصغى إلى موسيقى التسيجان . وفي ذات ليلة فاضت
نشوتنا فجذب شالا من على كتف راقصة ووضعه على كنفى ، ودفعنى
إلى حلبة الرقص ، وهو يصفق لى على الأنغام ، فرقصت والمرح يدغدغ
كل مشاعرى ، ذقت ليلتها حلاوة الإحساسات التى تدفع المرء إلى
الرقص طربا .

وذرعنا الجسر الذى يفصل بين المدينتين الجميلتين بودابست مرات
وذراعه ملفوفة حول خضرى وتبادلنا القبلات فوقه ونحن نرصد سباق
الزوارق فى النهر ، ونرقب السفن التى تمخر عباب الدانوب الأزرق فى
الليل .

وهربنا تحته من حرارة الشمس مرة ، ورحنا نشارك بعض الأطفال فى
محاولاتهم الساذجة لصيد السمك .

كان ذلك من سنين ، ولكننى أذكر كل شئ كأنما يقع الآن ، وأكاد
أميز ملاعح الأطفال ، وجندى المرور الواقف عند تقاطع الجسر بالطريق
الذى يقع فيه فندق جاليرت .

حتى هذا الفندق حملنى إليه ، تناولنا فيه غداءنا مرات ، ومرحنا فى

حوض سباحته الرائع الذى أقيم فى مبنى هائل مرتفع غطى بسقف من زجاج ، إننى لا أنسى يوم راح يعدو خلفى وهو بالمايوه وأنا بالمايوه الوردى الذى أخذته معى من ألمانيا دون أن أدرى ماذا سأفعل به ، ولحق بى وحملنى بيديه وضممنى إليه وهو يقول : « إننى سعيد لأننى أضم ألمانيا كلها إلى صدرى » .

وفى عصر ذلك اليوم صعدنا إلى قمة الحديقة الجميلة الواقعة على يسار فندق الجاليرت ، وعرجنا فى درجات كثيرة حتى تقطعت أنفاسنا ، واسترحنا مرات على المقاعد التى وضعت على مدرجات الحديقة ، وبعد رحلة طويلة شاقة وصلنا إلى مكان فى الحديقة ونحن على الرغم من التعب الذى مشى فى أوصالنا فى قمة السعادة ، وارتمينا على العشب وأنفاسنا تتردد فى صدورنا بأصوات عالية ، وبقينا مدة ونحن نلتقط أنفاسنا ؛ فلما انتظم زفيرنا وشهيقنا لف ذراعه حولى ، ورحنا ننظر إلى الجسر وإلى النهر وإلى بودابست التى كانت تحت أقدامنا .

وقال لى وهو يضغط على ذراعى : « سنأتى يوما إلى هنا ومعنا أولادنا ، وسأقول لهم إنهم مثل هذا الجسر الذى يربط بين مدينتين جميلتين ويجعلهما مدينة واحدة ، إنهم جسر بين المجر وألمانيا » .

واسترسلنا فى أحلامنا ، ولم نصح منها إلا على دوى المدافع وانفجارات القنابل ، كان هتلر قد أطلق إشارة البدء ليجتاح أوروبا ، وهب زوجى يدافع عن بلاده ويقف فى وجه بلادى .

وعرف الخوف طريقه إلى قلبى ، صرت قلقة أخشى ما يجبهه المستقبل

لى ، وما أسرع ما تحققت مخاوى ، قتل زوجى وأصبحت وحيدة فى بلد غريب لم يربطنى به إلا قلب كبير خفق بجبى ، ومزقه أهلى ، من حلم يوما أن يجعل أبناءه جسرا بينهم وبين أهله .

وأظلمت الدنيا فى وجهى وضاعت بى ، ولم أجد أمامى إلا أن أترك الحجر وأذهب بعيدا لعلى أنسى القسوة التى كتمت أنفاس زهرة حبى قبل أن تتفتح براعمها ، وحزمت أحزائى وانطلقت إلى البرازيل ، وفقدت جنسيتى مرة ثانية .

وراحت السنون تمر ، واندمل جرح قلبى ، وكدت أنسى كل ما كان بينى وبين زوجى ، ولكننى لم أنس أبدا وطنى . كان الحنين إليه يهاودنى ، كنت أحس إحساسا طاغيا يدفعنى للعودة إليه .

وجئت إلى برلين فى السنة الماضية ، وحاولت أن أسترده جنسيتى ، وقامت فى سبيل ذلك صعوبات ، فعدت إلى البرازيل لأزيل كل ما يحول بينى وبين وطنى ، وجئت هذا العام لأعود محاولا . لم يبق لى فى حياتى إلا رغبة واحدة ، أن أعود إلى وطنى .

فقال لها عبد الرحمن :

— وهل ذلت كل العقبات ؟

فقال فى مرارة :

— ليس بعد .

— وهل وجدت أحدا من أهلك عند عودتك ؟

فقال وقد شردت ولاح فى وجهها أسى :

— ١٢٤ —

— لم أجد منهم أحدا ، حتى أصدقائي ومعارفي لم يبق أحد منهم .
— وما الذى يدعوك إلى الإصرار على العودة ، ما دام لم يعد لك أهل
ولا أصدقاء ؟

فقلت فى صوت متهدج مشحون بالمحبة :
— أنقاض بيتى . هذا الطريق الذى شهد أسعد أيام حياتى ، عبر
الماضى الذى أشمه .

وراحت تحيل عينيها فى المكان الذى تلفه كآبة ويسيطر عليه سكون
أشبه بسكون الرموس ، وقالت فى انفعال جعل الدموع تطفرف إلى مآقيه .
— حقا الوطن غال .

السبغى المقدسة

انتشرت المقاعد والمناضد على طول أرصفة الشارع فى روما ، وغرقت
المدينة فى أنوار النيون المتألقة كالفضة والياقوت والفيروز ، وجلست إلى
نضد أمام محل ستريجا أرقب الغادين والغاديات ، والأنوار الجميلة المتألقة
على الطوار الآخر المنعكسه على الخيام التى تظل مقاهى الطريق ، فأحس
راحة وصفاء جميلا ينتشر فى ذهنى .

وجعلت أتلفت فى نشوة ، فلمحت بجوارى فتاة بيضاء البشرة زرقاء
العينين ، يتوسط ذقتها طابع حسن عميق ، كانت ترتدى ثوبا بسيطا
ولكنه أنيق ، عارية الساقين ، فى قدمها نعال أنيق ، وقد طلت أصابع
قدميها بلون كأنما مزج أحمره بفضة .

والتقت عيناي بعينيها مرة وظللنا ينظر كل منا إلى الآخر برهة ولم
يحتلج لها طرف ، فوجدت نفسى أشيخ بوجهى عنها وأتشاغل بمراقبة
سيارات الفيات الصغيرة المتدفقة فى شرايين المدينة كالسيل ، ولكن
سرعان ما عدت أنظر إلى جارتي الحسنة التى يكاد كتنفى يلمس كتفها .
وولدت على شفيتها بسمه رقيقة ، واتمعت عيناها ببريق ترحيب ، ثم
قالت وهى تنهض لتجلس على المقعد الموضوع على الجانب الآخر من

— ١٢٦ —

المنضدة :

— أسمع لي ؟

فقلت وأنا أنهض مرحبا :

— تفضلي .

وجلست وهي تقول :

— اغفر لي تطفلي ، أرجو ألا أكون أزعجتك .

— بالعكس ، إنني وحيد هنا ، وإنك بتفضلك هذا تملئين فراغ

حياتي .

فاقتربت برأسها مني وقالت في نبرات حادة :

— ألا تحدثني قليلا عن البوذية ؟

فقلت وأنا أبتسم :

— إنني أستطيع أن أحدثك طويلا عن البوذية ، ولكن ما الذي أغراك

على طلب هذا مني ؟

فقالت وقد اتسعت عيناها دهشة :

— أليست البوذية ديانتك ؟

— لا .

— أأنت من سيلان ؟

فقلت وأنا أضحك :

— سنوريثا ، لست أول من يخدعه شكلي ، كثير من الناس حسبوني

هنديا أو أندونيسيا .

— ١٢٧ —

— آسفة !؟ . من أين أنت قادم ؟

— من مصر .

— مسلم ؟

— نعم .

— إن ديانتك تشبه ديانتى كثيرا .

— وما ديانتك ؟

— يهودية .. اسمى إستر .

— سموك على اسم الملكة ، أليس كذلك ؟

وأومات برأسها أن نعم ، وقلت وأنا أبتسم :

— وهل اسم عمك مردخاى ؟!

فقلت وقد التمت عيناها ببريق فرح :

— أوه ! قرأت التوراة ؟!

— قرأتها أكثر من مرة وأحفظ بعض آياتها عن ظهر قلب .

فقلت وهى تزداد قربا منى :

— وأنا أعيش فى التوراة ، وكثيرا ما أرى فى أحلامى صور تلك

العصور .

— غريب ن تعيش فتاة جميلة مثلك فى العهد القديم . وحولها العالم

بمفاته ومغانيه .

فقلت فى صوت حالم :

— يا طالما تخيلت نفسى راعوث وراشيل وقديسات بنى إسرائيل .

— ١٢٨ —

— وما رأيك في إستر الملكة ؟

— القديسة أرجوك .. إنها أعظم قديساتنا ، إنها المثل الأعلى لكل فتاة يهودية مؤمنة .

— لقد زينها عمها مردخاى بيديه وقدمها إلى ملك العجم فيمن قدم من جوارى ، فماذا كان يحدث لو أن الملك قضى منها وطرا ثم هجرها كما هجر الجوارى الأخريات .

— إنه قدمها بيديه لينقذ شعبه ، وقد استولت على لب الملك وقادته إلى ما فيه خير بنى إسرائيل .

— ماذا كان مآلها لو أخفقت في الاستيلاء على قلب الملك ؟

— كان لا بد أن تضحي ، فليس طريق القديسات مفروشا بالورود .
وارتفعت ضوضاء السيارات ، وعكر صفو خلوتنا أصوات الرجال والنسوة الذين انتشروا حول الموائد وراحوا يتسامرون ويضحكون ، وقالت إستر :

— هل تنتظر أحدا هنا ؟

— قلت لك إني وحيد ، وإننى لا أعرف أحدا في روما .

— ما رأيك في أن نقوم بضرب في طرقات المدينة ، ونحدث ونغن متطلقون ؟

فقلت وأنا أنهض :

— هيا .

وسرنا في شارع روما والضجيج والعجيج لا ينقطعان ، والأنوار

المتلافة تأخذ بالأبصار ، وحديثنا عن أنبياء بنى إسرائيل لا ينقطع .
وبلغنا نافورة موسى : أسدان عن يمين ينظران إلى أسدين عن شمال والماء
يتدفق من أفواهها ، وتمثال موسى قائم يشير بأصبعه والماء يتدفق من
حوض تحت أقدامه ، والأضواء تنتشر في تناسق وهدوء ، وتطلعت إلى
التمثال طويلا ، وقالت لى إستر :

— هذا التمثال لا قيمة فنية له ، إنه مجرد محاكاة لتمثال موسى الآخر
الجبار ، هل رأيته ؟

— نعم ، وقد وقفت أمامه مشدوها ساعات أنظر إلى عظمة
التفاصيل .

والتفت إلى إستر وقلت لها :

— نبتت في رأسى فكرة الآن لماذا لم يصنع اليهود تمثالا لموسى ؟ ولماذا
لم يخلدوا آثارهم بالتمثيل وقد عاشروا الفراعنة ؟
— لأن ديننا ودينكم حرما التماثيل .

— ولكن اليهود ما إن تركهم موسى وذهب إلى الجبل ليناجى ربه حتى
صنعوا عجلا من ذهب .

— لقد زجرهم موسى على ذلك بعد عودته أشد زجر ، وعاقبهم الله
بسببه أربعين سنة في التيه .

واستأنفنا سيرنا ، ولاحت النافورة القائمة في ميدان بيازا ديلا
روبيليكّا عن بعد كأنها مسلة من نور ، وعبرنا الطريق حتى إذا ما بلغنا
ممر أسيدار التجارى عرجنا إليه لنفر من ضوضاء المدينة الصاخبة التى

(ليلة عاصفة)

تتدفق في طرقاتها سيارات الفيات والفسبا ، ويتدافع بالمنسكب على أفاريزها فتيات شامحات الصدور ممتلئات الأرداف . تلتف حول أعناقهن أذرع شبان أقوياء ، وتعبث في آذانهن أو ذقونهن أو أعناقهن أو شعورهن أصابع جريئة خبيرة .

بلغنا محل حلواني دانيئو وقد انتشرت أمامه بعض الكراسي من الخيزران الأنيق لف حول قوائم من الحديد دقيقة ، فالتفت إلى إستر وقلت لها :

— هنا مكان هادئ . ما رأيك في أن نجلس ونتسامر ؟

— الأضواء هنا صارخة لا تساعد على انسراح الخيال .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— إذا كنت تعبت من السير فلا بأس من أن تستريح قليلا .

— إن هوايتي المشي ، و ..

وقالت قبل أن أتم حديثي :

— وأنا أيضا ..

ثم انفرجت أسنانها عن ابتسامة رقيقة ، وطوحت رأسها لتصلح انسياب شعرها الذهبي الضارب إلى حمرة وقالت :

— كنت أحسب أنه قلما يتفق اثنان في هذا الوجود .

ثم أعقبت كلامها بضحكة ممدودة ذات جرس امتازت به نبرات بنات اليهود ، وقطعنا الممر التجاري حتى بلغنا نهايته ولفظنا إلى شارع كورنتو ، وظللنا في سيرنا حتى بلغنا الميدان واتضح لنا النافورة ، كان

في وسطها رجل روماني قوى تنبثق من نافورة بين يديه المياه عالية والأضواء تكسوها فتبدو كأنها تصل عملاق يتناول إلى السماء ، وحول التمثال دائرة تنبثق منها المياه المضيئة في أنصاف دوائر رائعة ، وخارج هذه الدائرة حوريات أربع عاريات تبرز كل فتنة ، إحداهن تكاد تسقط من على صهوة جواد كبا ، والثانية ترقد على ظهر سلحفاة ، والثالثة تمتطي أوزة ، والرابعة ممسكة بعنان بجعة ، كان منظرا يأخذ بالألباب ، وقد وقفت على سلم المبنى القديم الذي يطل على النافورة كما يطل التاريخ على حاضرننا وأنا مشدوه .

كانت السيارات مكدسة في الميدان ، ولم يكن هناك موضع لقدم ، ورأيت في طرف الميدان عربة حنطور وحيدة واقفة في ذلة ، كأنما تستشعر حقارة طبقتها إذا قيست بالسيارات المتألقة .

وداعبتني فكرة فقلت لإستر :

— ما رأيك في أن نذهب إلى فيلا برجيزى ؟

فقلت وهي تضحك :

— هذه أول مرة يذهب فيها فتى وفتاة إلى فيلا برجيزى ليتناقشا في

الدين .

وسارت في رفقتي تهز أعطافها ، قلت :

— نركب ٣٦ .

فقلت في إنكار :

— إن رقم ٣٦ لا يصل إلى فيلا برجيزى .

— ١٣٢ —

كانت تحسب أنني أشير عليها بركوب الترولى باس ، وكنا قد وصلنا إلى العربة الحنطور فأشرت بأصبعي إلى الرقم المكتوب بالأبيض على ظهر الحنطور وقلت :

. ٣٦ —

وجلجلت في الجو ضحكاتها ذات الجرس الخاص ، وفي خفة الطيف قفزت إلى المقعد الخلفي وفسحت لي مكانا إلى جوارها ، وانطلق بنا الحنطور يخب في طرقات روما ، أعظم متحف للمسيحية . وراحت إستر ترتل نشيد الأناشيد بصوت أنحاذ نفذ إلى أعماقي حتى إنني أطرقت برأسي أصيخ السمع وكلني خشوع .

وكانت السحب تتجمع في السماء ، ومال الجو للبرودة ، ولكن حرارة أحاديثنا كانت تمدنا بدفء حبيب ، ووصلنا إلى فيلا برجيزي وكانت حديقة كبيرة ، انتثرت على جانبي طرقاتها مقاعد خشبية ، وعلى كل معقد حبيبان متعانقان غائبان عن الوجود .
وأعطيت الحوذى أجره فهتف مسرورا :

— جراسيا !

وابتسم لي ابتسامة كلها تشجيع ، وعيناه تحرضاني على التمتع بالفاتنة .

وذهبنا إلى مقعد منزل ، وكان الظلام يخيم على المكان ، والهدوء شامل لا يعكره إلا رنين قبلة أو آهة ندت من فم نشوان ، قالت :
— إنني أضيق بهذه المادية الطاغية المستبدة بالعالم ، وبذلك الإلحاد

— ١٣٣ —

البغيض المسيطر على العقول .

فقلت في هدوء :

— أعتقد أننا مقبلون على عصر جديد من الإيمان العميق .

فقلت وقد اتسعت عيناها فرحا :

— حقا ؟ كم هذا يسعدنى .. تحدث .. قل .

— العالم يقاسى الآن من نهاية موجة الإلحاد التى غمرته فى القرن

الماضى .

— وهل تعتقد أن هذه الموجة ستعسر ؟ وكيف ؟ وما الذى يقود

الناس إلى الإيمان ؟

— الإيمان المتبصر مرحلة أرق من الإلحاد ، يحتاج إلى أفق أرحب ،

لقد بهرت التجارب العلمية التى أجراها البشر فى القرن الماضى ومطلع

هذا القرن أبصار الناس .. صاروا لا يؤمنون إلا بما تحلله المعامل ، وإن

نفس هذه المعامل هى التى ستقودهم إلى الإيمان .. البوتقة وأنبوبة

الاختبار والأجهزة الكثيرة المعقدة التى صنعها الإنسان .

— إنى لا أفهم ما ترمى إليه .

— انتظرى .. لقد فتت العلماء الذرة .. أليس كذلك ؟

فأومأت برأسها أن نعم ولم تنبس بكلمة ، ورحت أقول :

— هؤلاء العلماء هم خلاصة العقول المؤمنة بالمعمل والبوتقة وأنبوبة

الاختبار ، أليس كذلك ؟

فعادت تومئ برأسها أكثر من مرة ، كأنما تستحشنى على الإسراع ،

قلت :

— هؤلاء العلماء عندما فتوا الذرة وجدوا شمساً وأقماراً وعالمًا
منظماً تنظيماً عجبياً لا يمكن أن يكون إلا من خلق خالق قادر عظيم ،
فآمنوا بوجود قوة عليا هائلة ، آمنوا جميعاً وقال بعضهم بعد نجاحه العظيم
في تفتيت الذرة وعجزه عن تعليل الظواهر الرائعة التي شاهدها تعليلاً
علمياً : هنا الله .

فقلت وهي تلتصق بي وفي عينيها بريق غريب :

— أتظن أن انتظارنا لهذا العصر سيطول ١٩

— لا أظن ، إما أن يؤمن الناس أو تكون النهاية .

وتساقط المطر فقمنا نحتفى بشجرة ، وقلت وأنا أجذبها من يدها

وعلى فمى بسمة :

— هذه هي البداية .

— بداية الإيمان أو بداية النهاية .

— الله يدري .

وأخذت أتلفت أبحث عن سيارة ، ولحت تاكسيا مقبلاً فناديت :

— تاكسى .. تاكسى .

وجلجل صوتي في الحديقة ، وهتك الهدوء الذي ما كان يعكره إلا

صوت ارتطام المطر بالمقاعد وحفيف أوراق الشجر ، وأقبل التاكسى

، وأسرعنا إليه ، وما كدنا نغيب فيه حتى قلت :

— ما رأيك يا إستر في أن نلتقى غداً في نفس المقهى لنستأنف

حديثنا .

— غدا السبت ولا بد أن أذهب إلى الكنيس .

— لو كنت مسيحية لعرضت عليك أن أذهب معك ، ولكنني أعرف أنكم لا تحبون أن يدخل الكنيس أحد غير بني إسرائيل .
— هذا حق .

— إنكم لا تحبون أن يدخل أحد في دينكم ، تخشون أن تزدحم الجنة بالأمم .

فقلت في ثقة :

— الجنة لأبناء إبراهيم .

فقلت مداعبا :

— نحن من أبناء إبراهيم ، إننا من نسل إسماعيل .

وصمت وإن كانت الألفاظ تتراقص على شفتيها ، فقلت لها :

— تحاولين وأد الكلام الذي يوشك أن يولد على شفتيك ؟! إنني أعرف ماذا تريدن أن تقولي ، قولها ولن يجرح ذلك شعوري .. الجنة لأبناء إسحاق ، بل لأبناء يعقوب : إسرائيل بالذات .. شعب الله المختار ، أليس كذلك ؟

فقلت وهي تطرف بعينيها ورموشها تتراقص :

— ما رأيك في أن نلتقى بعد غد في الخامسة مساء في ستريجا ؟

وعدت إلى الفندق وأنا أفكر في هذه الفتاة الجميلة التي تعيش في عالم مادي لا يعرف أهله إلا لذة الجسد ، ومع ذلك تأبى إلا أن تعيش في

العهود المقدسة . وجاء يوم السبت وانقضى نهاره ووفد ليله ، وخطر لى
أن أنطلق إلى مونت ماريو أشاهد من فوقه روما العظيمة التى يضمها
الجليل إلى صدره كما تضم الأم الحنون وليدها .

واستدعيت تاكسيا وانطلق لى إلى ميدان أسبانيا ، ثم أخذ يلف ويدور
حتى وصل إلى قبر الجندى المجهول ، وإلى المكان الذى كان يقف
الدوتشى فيه ساعات يخطب فى أنصاره المفتونين به . وفطنت إلى أن
السائق يستغل جهلى بالمدينة ويسلك أطول السبل المؤدية إلى الجبل ،
ولكننى لم أغضب فقد كنت لا أدرى كيف أمضى مسائى .

وراحت السيارة ترقى فى الطريق الصاعد ، وبدأت أضواء روما تظهر
تحت بصرى رويدا رويدا ، وظلت السيارة فى صعود ، وخطر لى أن
أقف طويلا أمعن النظر فى المدينة الغارقة فى النور ، ولحت سيارة واقفة
على جانب الطريق ، فأغرانى ذلك على أن أطلب من السائق أن ينتظر .
ووقفت السيارة وهبطت منها ، وجعلت أقلب النظر فى قبة
الفايتكان ، وفى الأضواء المتألقة من النافورات والمسلات والتمائيل وفى
الإعلانات الكثيرة المضئية التى تكاد تغشى البصر ، ووقفت خاشعا مدة
كأنما كنت فى صلاة ، ثم سرت لأعود إلى السيارة التى كانت تنتظرنى .
ودنوت من السيارة الأخرى التى كانت واقفة على جانب الطريق
ووجدت منظرا جذب بصرى إليه وإن حاولت أن أشيح عنه بوجهى ،
كان فى المقعد الخلفى فتى وفتاة تجردت من بعض ثيابها .

وهممت باستئناف سبرى ، ورفعت الفتاة رأسها ونظرت فإذا بعينها

تلتقيان بعيني ، وإذا بي أستشعر مساكهريا ينساب في من رأسي إلى أصبع قدمي ، لقد كانت إستر الفتاة التي تعيش بين دفتي كتاب مقدس .
واندفعت إلى السيارة لا ألقى على شيء ، وانطلقت بي وأنا شارد
أستشعر على الرغم مني شعور من فجع في شيء عزيز . إنني لم أقابل إستر
إلا بالأمس فقط ، ولم يكن بيني وبينها إلا مجرد أحاديث ومحاورات حول
الدين ، وعلى الرغم من ذلك أحسست يدا قوية تقبض صدري وضيقا
ينتشر في أرجائي ويستبد بي .

وانصرم الليل وبعض ما دار بيني وبين إستر من حديث يرني في أذني
في لحظات أرقى ، وبعض انقباضات الأسي تلم بي ، وجاء النهار ووافي
ميعاد تلاقينا فخطر لي ألا أذهب فإنها لن تأتي ، ولكنني عزمت على
الذهاب وعلى تمضية ليلتي هناك أرقب الغادين والغاديات وأشاهد قصص
الحب التي تقع حوادثها على قارعة الطريق .

ووصلت إلى المقهى قبل الموعد المضروب بيني وبينها ، ولم كانت
دهشتي لما لمحتها جالسة إلى نفس النضد الذي كنا نتحدث حوله .

ولمحتني قادمة فقامت تستقبلني متلهلة الأسارير ، وجلست وقد
عزمت ألا أشير من قريب أو بعيد إلى ما رأيت بعيني رأسي فوق الجبل ،
ولكن ما إن استقر بنا المقام حتى قالت في هدوء :

— رأيته أمس وأنت فوق الجبل .

— ذهبت لأشاهد منظرا عاما لروما في الليل .

ولزمت الصمت ، فقالت :

— لا تريد أن تتحدث عما رأيته بالأمس ، تريد أن تطبق فمك حتى لا تجرح شعورى ، أشكر لك هذا ، ولكننى أحب أن تعرف ما حيرك من تناقض أقوالى وأفعالى . لابد أنك فكرت كثيرا فى ذلك .

ولم أنبس بكلمة ، فازدادت قربا منى وقالت :

— سأفضى إليك بسرى ، إننى لم أحدث به أحدا من قبل ، إنهم لن يستطيعوا أن يفهمونى ولكننى واثقة من أنك ستفهمنى . أنا لم يغربنى أحد ، ولم أكن ضحية بيعة ، ولم يدفعنى إلى هذا السبيل حاجة إلى مال أو عطف أو حنان ، فأنا موسرة وأنى وأمى يعطفان على كثيرى ، ولكننى اخترت هذا الطريق بمحض اختيارى وبعد تفكير وإمعان فى التفكير . هذا عجيب .

— قرأت فى بعض كتبنا الدينية القديمة أن المسيح المنتظر سيأتى ليخلص البشر من أنانيتهم وشروهم وآثامهم ، وأنه سيتزوج من مومسة ، وأن هذه المومسة ستحيا معه بعد ذلك حياة طاهرة لتكون دليلا حيا على أن الخطايا تغفر وأن العاصى يستطيع أن يعود إلى حظيرة الإيمان وهو واثق من رحمة الله ، وأن يتعلم المجتمع كيف ينسى للتائب ذنبه ويفتح له صدره الحنون .

فقلت وأنا أرنو إليها وهى تتحدث فى إيمان :

— جميل .

— همس فى أغوارى هامس أننى زوجة المسيح المنتظر ولكن كيف أكون زوجته وأنا طاهرة ؟ ينبغى أن أكون بغيا ، وكان ذلك الخطا رهيبا

لم تحتمله نفسى ، فجعلت أبتهل إلى الله أن يوطد عزمى وأن يهينى القوة التى تعيننى على هذه التضحية ، وقد كان ، ووهبت نفسى لأول من قابلنى ، لم أفكر فيه ، كان رجلاً أسود دميماً ، ولكنه كان جميلاً فى عيني لأنه سيقودنى إلى أول الطريق ، ومنذ ذلك الوقت صرت أهب نفسى لكل من يطلبنى .

— وإذا لم يظهر المسيح الذى ترقبينه فماذا ستفعلين ؟

وعاد البريق يأتلقى فى عينيها وقالت فى إيمان :

— سأنتظره .. وسأنتظره حتى آخر نسمة فى حياتى .

— وإذا لم يظهر ؟

— أكون قد آمنت به قبل ظهوره ، وأستحق أن أكون فى اللجنة معه .

— هذه .. هذه ..

فقال فى انفعال :

— هذه تضحية كبيرة .. إننى أحس ذلك ، ولكن لا بد للقديسات

من تضحيات .

ولم أجد لسانى قاثرت الصمت ، وإذا بها تزدد قرباً منى وتقول :

— ألم يهمس فى أغوارك هامس ذات ليلة بأنك المسيح المنتظر ؟

— لم يخطر ذلك على قلبى أبداً .

فقالت هامسة فى نبرات متقطعة كأنما توحى إلى شىء :

— وبعد أن أفضيت إليك بسرى . ألم تراودك فكرة أنك قد تكون

ذلك المنتظر ؟

— ١٤٠ —

ولم أشأ أن أجرح شعورها فقلت لها :
— لأننى لم أتسام بعد إلى هذه المرتبة الرفيعة ، مرتبة أن أنكر ذا:
وأتزوج من بغى مقدسة لأكون للبشر مثلاً .
فقلت فى غضب وهى تنهض :
— حسبتك مميزا عن الآخرين ، ولكن خابت فراستى ، إنك مثلها
وإن كنت قرأت كثيرا فى الكتب المقدسة .. هيا .. قم .. ماذا تنتظر
— إلى أين ؟
— إلى فيلا برجيزى .

رومانى الليله

ذهبت إلى الشاب الإيطالى الوسيم الواقف خلف مكتب
الاستعلامات فى فندق ريبلى ، وقلت له :
— أريد أن أرى الحياة الليلية فى روما .
فقال وهو يسرع بتقديم برنامج « روما فى الليل » :
— ما أروع روما فى الليل يا سيدى !
ثم أردف قائلا :
— عندما تكون فى روما افعل ما يفعله الرومانيون .
وابتسم فى اعتزاز وقال :
— هل سمعت ذلك من قبل يا سيدى ؟
ولم أشأ أن أخيب أمله فقلت له :
— لا ، ولكنه مثل حكيم .

ورحت أتصفح برنامج « روما فى الليل » ، وما بدأت أقرأ أول سطر
فيه حتى ارتسمت ابتسامة على شفتى وتطلعت إلى الإيطالى الوسيم
لحظة ، كان أول ما قرأت « عندما تكون فى روما افعل ما يفعله
الرومانيون » ، الغالب أنك سمعت هذا المثل ، فهل تحب أن تفعل

مثلهم ؟ إذن دعنا نمر عليك الليلة في فندقك بين الساعة التاسعة والتاسعة والنصف بسياراتنا الفاخرة .

وانتهيت من قراءة البرنامج ، ووجدت أن على أن أدفع سبعة آلاف وخمسمائة ليرة إن أردت أن أنعم بزيارة الأماكن الليلية كلها الواردة في البرنامج أو أن أدفع خمسة آلاف وخمسمائة ليرة إن اكتفيت بزيارة ثلاثة أماكن فقط .

وعدت إلى الشاب الإيطالي الوسيم وقلت له :

— ما الفرق بين الرحلة الأولى والرحلة الثانية ؟

وقال الشاب وهو يشمخ بأنفه :

— في الرحلة الأولى ستعيش ليلة مع الأمريكيان الأثرياء .

فقلت له وأنا ألوح بالبرنامج :

— إننى أريد أن أفعل في روما ما يفعله الرومانيون ، لا ما يفعله

الأمريكيون . .

فقال وقد خفض من صوته :

— إن ما يفعله الأمريكيون في روما لذيد .

وحسبت أن هناك رحلتين منفصلتين ، فدفعت سبعة آلاف

وخمسمائة ليرة وتناولت الإيصال .

وهمت بالانصراف ، وإذا بالشاب الإيطالي يهمس :

— إننا نعتبر الأمريكي طفلاً في الخامسة عشرة ، وفي يده مال ممدود .

وابتسم ولكنى لم أبتسم ، فقد فطنت في تلك اللحظة إلى أننى طفل

في الخامسة عشرة وفي يدي مال كثير .

ووقفت سيارة الرحلة أمام باب الفندق ، وكانت حمراء فاخرة كتب على جانبها بحروف من ألومنيوم بارز : « موندريال تور » ، وهبط منها الدليل الإيطالي ، وكان وسيما رشيقا أنيقا كنجوم السينما ، وانطلق إلى ردهة الفندق يستدعيني .

وصعدت إلى السيارة ، ودرت بعيني فيها دورة سريعة ، فإذا ببعض شيوخ الأمريكيان وعجائزهن قد احتلوا بعض المقاعد الخلفية ، فجلست في مقعد خلف مقعد الدليل .

ودارت السيارة على الفنادق ، وجموع من الشيوخ ومن فاتهن قطار الشباب تصعد إلى السيارة . ووصلنا إلى آخر فندق وقد كاد الأمل في أن ننعيم بوجه واحد جميل أن يلفظ آخر أنفاسه ، ولكن ما أن لاح القادمون حتى استشعرت راحة فقد كان بينهم فتاتان تمثلان الجمال الأمريكي الذي يبدو كرماد تحت نار ، وجهان صبوحيان وقوامان رقيقان وإن تفاوتتا في الطول .

وصعدوا إلى السيارة وراحوا يحتلون الأماكن الخالية ، وتلفتت فتاة منهما تبحث عن مكان ، ولم تجد إلا المكان الخالي بجوارى فجلست فيه دون أن تلقي على نظرة .

وارتفع صوت الدليل :

— ستشاهدون الأماكن الليلية التي يفضلها المجتمع الروماني ، آثارنا المتأنقة ، مطاعمنا التي تتساب فيها الأنغام الإيطالية الدافئة ، وستشرفون

آذانكم بأغانينا التي ستدوقون فيها طعم النيذ المنعش الذى اشتهرت به هذه البلاد .

وانسابت السيارة تمر مر الكرام على آثار روما ، والدليل يذكر فى اختصار اسم التاريخ أو الأثر الذى نشاهده .. فى فيتوريو فينتو .. فونتانا ناجاد .. بيازا فينيسبا .. تمثال الإمبراطور ماركوس .. قبر الجندى المجهول .

واختلطت الأسماء فى رأسى ، ولم أخرج من هذه الرحلة السريعة إلا ببعض مشاهد لنافورات وتمائيل غارقة فى الأضواء ، وكل ما عرفته أن فى معنى شارع وأن بيازا يعنى ميدان .

ومرت السيارة بمسلة مصرية فالتفت إلى جارتى وقلت :
— هذه المسلة ملكى .

واتسعت عينها وهى تلتفت إلى ، ولكن انقشعت الدهشة وارتسمت على شفتيها بسملة خفيفة لما قلت :

— إنها سلبت من بلادى ، وأنا وارث هذه الثروة المطالب بها .

فقال وهى تلتفت إلى بكل جسمها :

— وهل لو ردت إليك تأخذها ؟

— لو قيل لى ذلك وأنا فى مصر لما ترددت لحظة فى أخذها .

— والآن ؟

— لن أتردد أبدا ، إننى سأرفض حملها معى لأنها هنا تذكر العالم بنا ،

إنها سفيرنا فى متحف الفن هنا .

— ١٤٥ —

وانسابت السيارة وصوت الدليل يتردد في جنباتها ، وشردت جارقى
برهة ثم قالت :

— من مصر ؟

— من القاهرة على التحديد .

— وهل تبعد القاهرة عن الإسكندرية كثيرا ؟

— أقل من ثلاثمائة كيلو .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— وهل تصل تماسيح النيل إليها ؟

وندت عنى ضحكة ساخرة . فقالت :

— لا تضحك ، قيل لى مرة إن الإسكندرية مدينة جميلة ، وأن

تماسيح النيل لا تصل إليها ، وأن ليس بالنيل تماسيح وأن كل ذلك خرافة ،
ولكننى لم أصدق ..

ثم قالت كأنما تحدث نفسها :

— كنت أريد ألا أصدق .

وساد الصمت برهة ، وطافت بها موجة من الأسى ، ثم التفتت إلى

وفى عينيها الزرقاوين سحابة كدر وقالت :

— حدثنى عن الإسكندرية .

فقلت لها :

— إنها تشبه روما كثيرا فى مبانيها .. فى طرقاتها .. فى انحدارها

وصعودها ، فى الأنوار المتألقة فى الليل .. فى السيارات الكثيرة المنسابة فى

(ليلة عاصفة)

— ١٤٦ —

طرقاتها .. إلا أن الإسكندرية تمتاز عنها بكورنيشها البديع الذى يمتد على البحر على طول المدينة .

فقلت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

— كل امرئ يتغنى ببلاده ..

فقلت فى حماسة :

— الإسكندرية عروس البحر الأبيض .

فقلت فى صوت حالم :

— لقد قيل لى ذلك يوما .

وشردت واختلت بنفسها ، فاحترمت خلوتها وأطبقت شفتى .
ووقفت السيارة ، وارتفع صوت الدليل يقول فى لهجة تمثيلية كأنما يدعوننا إلى وليمة :

— هيا أيها السادة نمضى بعض الوقت فى « هوستاريا ديللورسو » .
وغادرنا السيارة ، وانطلقنا إلى درج من الحديد هبطنا فيه إلى مكان أشبه بأماكن بيت المقدس ، المباني قديمة والطريق مرصوف ببلات من البازلت الأسود ، وقد وقفت على باب المكان الذى سنزوره فتاة تبيع الورود ، وخطر لى أننا سنزور كنيسة قديمة ، ولكن ما أن دلفت إلى المكان الذى كان أشبه بكهف ومست أذى الموسيقى الإيطالية الدافئة حتى فطنت إلى أننا فى ناد ليلى .

واندفع رفاقى من باب ضيق فى جانب الردهة المزينة بصور جميلة إلى القاعة التى صفت فيها المناضد والمقاعد ، ووضع عند مدخلها بار صغير

وقف أمامه مطرب إيطالى يشدو على الأنغام المنبعثة من الآلات ، وكان يلعب عليها رفاقة الثلاثة الذين أسندوا ظهورهم للحائط . كان غاية فى البساطة ، كل ما يزينه مرايا صغيرة مذهبة انتشرت فى المكان فى ذوق بديع ، وقد انبعثت الإضاءة من خلفها فأضفت على المكان شاعرية وجمالا .

ودارت أقداح الشمبانيا على الجميع ، وراح بعض الفتيات يتأودن على أنغام المطرب الشاب ، ويغمزن له بعيونهن وقد انفرجت أفواههن من النشوة .

وراح الدليل يمر على مرافقيه ويحييهم ، وقد كان نصيب جارتى من التحية والحفاوة أكبر نصيب ، ومال عليها وهمس فى أذنها ببعض كلمات ، فإذا بها تنهض وتسير أمامه وهى تفسح لنفسها طريقا بين الحشود المكدسة فى القاعة ، وهو فى أثرها يسند ظهرها بيده .

كنت واقفا عند مدخل القاعة أنظر من بعيد ، فلما مراى أحس الدليل أنه لم يحتفل بوجودى ، وكأنما شاء أن يعوضنى عما فاتنى فالتفت إليّ وقال :

— تعال معنا .

لم أكن أدرى إلى أين هما ذاهبان ، وعلى الرغم من ذلك سرت معهما ، وصعدنا فى درج جانبي ، رأيت فى نهايته صورة جميلة لرجل وامرأة تحررا من ثيابهما وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه ، فقلت مستفسرا :

— آدم وحواء ؟

ولم يسمعنى الدليل ، كان مشغولا عنى بنسج شباكه حول جارتى
الحسناء .

ووقفنا نتطلع إلى قاعة طعام كان كل ما فيها عاديا ، ولكن الإضاءة
الماهرة والفوضى المنظمة والموسيقى الحنون تلقى على الجو ظلالا من
الروعة تتدسس في نشوة إلى أعماق النفوس .

ومال الدليل على جارتى وقال :

— هذا مكان نجوم السينما الإيطاليين المفضل .

وقبل أن أشارك معهما في الحديث كانا في طريقهما إلى السلم مرة
أخرى .

وعدنا إلى السيارة ، واحتل كل منا مكانه ، وعاد المذيع إلى شرحه
السريع ، ولكنه كان بين الفينة والفينة يلتفت إلى جارتى ويفضى إليها
بشرح خاص .

ورحنا نرقى في الجبل ، ورأينا روما تسبح في الأضواء ، كان منظرا
رائعا أخاذا ! وعرجت السيارة إلى طريق خاص ، وإذا بنا أمام مبنى تشع
منه الأضواء ، وتتردد بين جنباته الأنغام تردد الأنفاس العطرة على وجه
الحبيب .

ودخلنا قاعة أرضها من الرخام الإيطالى المصقول ، وفي أعلى واجهتها
أقفاص من البلور بها أفرع أشجار تنتقل على غصونها عصافير الكناري
بألوانها البديعة الزاهية . وقد وضعت في أماكن بعيدة منصدتان حولهما
في شبه دائرتين كراسي وثيرة .

وجلست على مقعد في إحدى الدائرتين ، وإذا بجارتى الحسناء
والحسنة الأخرى تجلسان أمامي ، وإذا بسيدة عجوز ولكنها في زينة ابنة
العشرين تجلس عن يساري ، وإذا بكهلين أمريكيين يجلسان عن يميني .
ودارت أكواب الوسكى مرة ثانية وملئت الكأس الموضوعة أمامي
فقدمتها إلى جارتى الحسناء فأخذتها شاكرة ، وصبتها في كأسها الفارغة
التي كانت قد عبت ما فيها في جوفها .

وعزفت الموسيقى وارتفع صوت المغنى الإيطالى :
— أوه .. أوه بالللاذى .

وجاء الدليل وطلب جارتى الحسناء لترقص معه ، وأخذها طريقهما إلى
حلبة الرقص ودنوت من العجوز المتصاية وقلت لها :

— ألا يجرى في عروقتك دم فرنسى ؟

فضحكت مسرورة وقالت :

— كل من يرانى يحسبني فرنسية !

فقلت لها مداعبا :

— ولكنك أجمل من الفرنسيات .

وكأنما أرادت أن تكافئنى على إطرائى ، فالتفتت إلى الفتاة الجالسة

أمامي وقالت :

— ما رأيك في هذه الحسناء ؟

— جميلة ، رائعة الجمال ، من يراها لا يخطئ أبدا أنها أمريكية .

— ألا تقوم ترقص معها ؟

— ١٥٠ —

فقلت مداعبا :

— إذا كان لى أن أختار فلن أراقص غيرك .

ونفضت فى خفة وقد أشرق وجهها وقالت :

— كم أنت كيس !

ودفعت ثمن كياستى فجعلت ألف وأدور مع الخيزبون ، وعينى لا

ترتفع عن وجه الحسناء الجالسة فى مقعدها شبه حاملة .

وعدنا إلى السيارة لنستأنف رحلتنا المكتظة بالمشاهد وإن كانت لا

تروى ظمأ ، وقلت لجارقى الحسناء :

— من نيويورك ؟

— نعم .

— فى رحلة ؟

— فى رحلة طويلة .

— ومتى ستعودين إلى نيويورك ؟

فقلت فى حدة :

— لن أعود إليها ، لن أعود إليها أبدا .

واكتسى وجهها بالأسى ، والتمعت عيناها ببريق خاطف ،

واستدارت لتقص على قصتها ، ولكن الخمر لم تكن قد لعبت برأسها

بعد ، فاستطاعت أن تكبح جماح الكلمات التى تود أن تفر من مستودع

أسرارها ، وراحت تتطلع إلى المشاهد التى تمر بها وهى شاردة .

وانطلقنا إلى بلقدير ديللروى ، وحشرنا فى مقاعد صفت إلى جوار

الأوركسترا حتى ينجيل إلى أن أنفى يكاد يمس سطح الطبلية التي كان يدقها بمهارة إيطالي أسمر ، ودوت في المكان موسيقى العنبر ، وظهرت فتاة ترتدى روبا فضفاضا ، وراحت تخلع ثيابها قطعة قطعة على أنغام الموسيقى الصاخبة ، خلعت الروب ثم القميص ثم الجورب ثم .. ثم حتى أصبحت عارية كما ولدتها أمها ، بل كانت ولا شك أروع من يوم ولادتها ، كانت كتماذج الرومان تنبض بالحياة .

ودارت كهوس الوسكى ، وشرب الجميع وتقطع آخر قيد يشد الوقار إلى النفوس ، وتألفت العيون ببريق عجب ، وقام الشيوخ والعجائز والشبان يرقصون رقصا عنيفا فأصبح المكان أشبه بحلقة زار . وعادت جارتى الحسناء إلى جوارى بعد أن رقصت مع الدليل الإيطالي وقد بدأت ضحكات هستيرية تفلت منها ، لقد بدأت نشوة الخمر تتسرب إلى رأسها .

وأخذ الدليل يجمعنا ويقودنا إلى السيارة ، انطلق بنا إلى * جروتى دل بشيوتى * ، وأشار إلى أن أهبط من السيارة وطلب من جارتى الحسناء أن تتفضل وهبط معنا اثنان آخران ، وأمر السيارة أن تعود بالآخرين إلى فنادقهم ، وفي هذه اللحظة فقط فطنت إلى أن الرحلة قد انتهت لمن دفعوا خمسة آلاف وخمسمائة ليرة فقط ، أما نحن الأثرياء فلا زال في عمر رحلتهم بقية .

كان التعب قد مشى في أوصالى ولو خيرت لاخترت العودة إلى الفندق ، ولكننى وجدت نفسى أسير مع رفاقى ، وجلسنا إلى مائدة

واحدة ، وشربت جارتى كأساً من الوسكى فإذا بكل عواطفها المكبوتة تنطلق ، سارت وهى تتأيل وتضحك دون وعى وترقص مع الدليل الإيطالى وقد أسندت رأسها إلى صدره .

وعادت وهى تضحك ضحكات متتابعة ، وأمسكت الكأس فى يدها ، وفجأة ارتسم على وجهها آى الجد ، ومالت على وقد التصقت جبهتها بجبهتى وراحت تهمس :

— كثيراً ما يرتكب المرء حماقات ثم يندم عليها ، هل تفهمنى ؟

— نعم أفهمك ولا شك .

— لماذا أحس رغبة فى أن أقص عليك أمرى ، لماذا ألقى عليك عبء

هموهى وأنا لم أرك إلا من ساعات قليلة ولا أعرف حتى اسمك ؟ إننى أعرف أن ذلك أمر لا يهكم ومع ذلك أحس راحة فى أن أفضى إليك بما يضيق به صدرى ، هل يضايقك حديثى ؟

— أبداً ، بل يسرنى أن أصغى إليك .

— هل ارتكبت مرة فى حياتك حماقة ندمت عليها فيما بعد ؟

— إن حياتى سلسلة من الحماقات .

— إذن ستفهمنى .

— اطمئنى ، إننى إنسان .

وضغطت بجبهتها بجبهتى ، ورنّت إلى بعينها الزرقاوين المتأجج فيهما

لهب نار ، وازداد همسها خفوتاً ولكنه كان واضحاً معبراً مؤثراً حتى إننى أحسست وقع مأساتها فى قلبى قبل أن تنطق بها ، قالت :



وعادت جارقى الحسناء إلى جوارى.
بعد أن رقصت مع الدليل الإيطالي

— لم يكن لى غيره ، كان الوحيد فى حياتى ، أحبيته من كل قلبى ، وجاء ذات يوم إلى أبوى وأخبرهما أنه قرر أن يتخذنى شريكة حياته ؛ كان ذلك أبهج ما كنت أنتظره . ملأتنى النشوة حتى لم يعرف النوم طريقه إلى عيني تلك الليلة .

ومرت الأيام وجاء يطلب عقد القران ، لأنه قد تقرر تعيينه مديرا لشركته فى الشرق الأوسط ، وأخبرنى أننا سنعيش فى الإسكندرية .

انقبص صدرى ودون تفكير أخبرته أننى لن أذهب معه ، وراح يصف لى الإسكندرية ويزينها لى ولكننى لم أصغ إليه لأننى كنت خائفة من نفسى . أقولها لك صراحة كنت جبانة ، لم أكن قد انفصلت عن والدى أبدا ، فخيّل لى أنه سينتزع عني من دنيائى ، لو أن الموت طرق باب غرفتى علىّ لما أفزعتنى كما أفزعتنى فكرة السفر .

كانت حماقة منى أن أرفض ، وكانت حماقة منى أن أصر على الرفض ، ولم يكن أمامه إلا أن يتزوج غيرى .

وضغطت على الكأس القابضة عليها فتهشمت وسال ما بقى فيها على ثيابها ، فأسرعت أمسح بمنديل الخمر المنسكب فى حجرها ، وقامت منتصبة وقالت :

— آسفة .

ولكن سرعان ما جلست وعادت تلصق جبهتها فى جبهتى وتهمس فى صوت شحن أسى :

— وحمل زوجته وذهب ، وبعد أن غاب عني أحسست أننى لا

أستطيع أن أعيش بدونه . أصبحت نيويورك بدونه مقفرة بغیضة فى عینى ، قررت أنا التى أفرعتها فكرة السفر مع من یحبها والتى لم تغادر أبویها من قبل أن أفر بعيدا ، أن أهیى على وجهى فى العالم الرحب لعلى أنسى .

وصمتت قليلا ثم قالت :

— أحس رغبة فى البكاء .. أريد أن أبكى .

ومالت برأسها على صدرى ثم قالت :

— خذنى معك .. لا تتركنى لنفسى .. أكاد أموت كمدا .

وسادت فترة من الصمت ، ثم رفعت عینها وقالت وهى تهز رأسها

كأنها تطرد شبحا احتل ذهنها :

— لا .. لا .. لن أذهب معك .. ولن أذهب معه ، إنه يريدنى أن

أذهب معه . يريد أن يستغل ضعفى ، أن ينتهز حاجتى الجياشة للحنان .

وصمتت قليلا ثم عادت تلتصق بى وتقول :

— ضمنى إليك .. ضمنى إليك بقوة حتى لا أحس أننى وحيدة، وأن

أشعر أن إلى جوارى من أستطيع أن يفهمنى .

وجاء الدليل الإيطالى وطلب منا أن ننهض لنصرف ، فنهضنا وإذا به

یتسلم الودیعة ویلف ذراعہ حولها ویسیر بها إلى السیارة وهو دائب

الهمس فى أذنها .

وجلست فى مقعدى وحيدا ، وانطلقت السیارة إلى فندق ونهضت

لأهبط ، وإذا بها تنادینى وتصافحنى وتشد على یدى .

— ١٥٦ —

ووقفت على الطوار أنظر وهي تنظر إليّ من خلف الزجاج ، وتلوح
لى بيدها مودعة ، وجذبها الدليل إلى صدره وجثم عليها كما يجثم الذئب على
شاة ، وانطلقت السيارة بهما ليسطرا نهاية قصة .

روما: ١١ / ١٠ / ١٩٥٨

حدث في روما

كان يسير في شارع فيتوريا عمانويل يتفوس في الرائحين والرائحات ، ويقف أمام واجهات المحال لحظات طويلة ، حتى إذا ما سئم التجوال جلس إلى نضد في مقهى يزا بيروني يتطلع إلى بيازا ديلا ريبيليك ، وإلى النافورة الرائعة التي تتوسط الميدان ، وإلى العشاق الجالسين حول سور النافورة يتحدثون قليلا ويتعاقون طويلا ، وأصابع الأيدي تتشابك أو تتلمس الحدود أو الأعناق أو الشفاه .

وما كان يتعد عن فندق الكورينالي إذا كان وحده ، فقد سار مرة في طرقات كثيرة ولم يستطع العودة إلى فندقه على الرغم من خريطة روما التي قلما كانت تغادر جيبه ، واضطر أن يركب تكسيا ، وكم كانت دهشته عندما وجد أنه كان على بعد بضعة أمتار من فندقه .

وخطر له أن يشتري قميصا ، فدخل محلا في قبالة الفندق الكبير كان منيرا ولكنه أنيق ، وكان كل من يعملون به امرأة عجوز ورجل وخط الشيب شعر رأسه وفتاة إيطالية سوداء الشعر دقيقة الخصر ممتلئة الصدر والأرداف ، تمتاز بروح سرعان ما تجذب الناظر إليها .

وتحدث بالإنجليزية ، وأجابته الفتاة إلى طلبه وهي تحدثه بلغة إنجليزية

سليمة ، فقال في فرح :

— لكم يسعد المرء عندما يسمع لغة يفهمها ، إن وقع حديثك في أذني أعذب من أروع قطعة موسيقية ، إنني مشتاق إلى الإنصات إليك ، إنني بطبعي لا أميل إلى كثرة الأخذ والعطاء في الشراء ، ولكن الظاهر أني سأتحلى عن هذه العادة اليوم ، وسأساوم وألح في المساومة ، ولكنني سأدفع أخيرا ما تطالبينه . اتفقنا ؟

ف قالت وهي تبتسم :

— اتفقنا .

وتفرست في وجهه طويلا ثم قالت :

— أمريكي ؟

— نعم . من نيوجرسي .

وراح يقلب القمصان ويختار منها ما يشاء وهو دائم الحديث ، ثم

توقف قليلا ورفع رأسه ونظر إليها وقال :

— هل أنت مرتبطة بموعد غدا ؟

ف قالت في هدوء :

— لماذا ؟

— إن لم تكوني مرتبطة بموعد ، فأنتي أدعوك لنخرج معا .

— لماذا ؟

— لتكوني دليلي .

— في روما من يحترفون هذه المهنة .

— ١٥٩ —

— أولاً إننى لأحب المحترفين ، وثانياً أحب أن أصغى إليك وأنت
تحدثين إلى بلغة أفهمها ، إننى أستشعر الوحدة فى روما على الرغم من
ملايين الناس الذين فيها .

فقلت له وهى تبسم :

— إن كنت مشتاقاً إلى سماع لغة بلادك فإذهب إلى قهوة دونى فهى
ملتقى السياح الأمريكان .

فقال وهو يلوح بيده فى ضيق :

— الأمريكان ! وهل غادرت أمريكا لأقابل الأمريكان فى روما ،
إننى أريد أن أتحدث إلى الإيطاليين ، أن أتذوق طعاماً جديداً للحياة .
فقلت وهى تبسم :

— قل إنك تريد أن تتحدث إلى الإيطاليات على التحديد .

— إلى الإيطاليات الحسنات على وجه الخصوص .

وضحك وضحكت ، وقال لها وهى تكتب كشف الحساب .

— غداً الأحد ، وإنه جميل أن نمضى اليوم معاً كما يمضيه الإيطاليون ،
سأنتظرك فى قاعة الانتظار فى فندق الكورينالى فى الحادية عشرة .

— ولماذا فى الفندق ؟

— لأنه المكان الوحيد الذى أعرفه فى روما .

— غداً سأمر عليك .

— سأنتظرك فى الحادية عشرة ، شكراً .

وغادر المكان وهو يحس نشوة .

وفى الحادية عشرة كان جالساً فى مقعد وثير فى قاعة الفندق فى مواجهة

الباب ، وكان يتفرس في اهتمام في القادامات ويكاد يقف على قدميه كلما دار الباب دورة ولفظ شابة جميلة ، وقبل أن يتحرك عقرب الدقائق ليقطع شوطه الثاني عشر في هذا الصباح لحها قادمة ترتدى ثوبا أحمر مخططا بمربعات سوداء كبيرة ، وحول وسطها حزام أسود عريض فصل الصدر الناهد عن الخصر النحيل وحدد بداية تكوير الظهر البديع ، وكان الثوب قصيرا غبدت سيقانها كأنما خرطت من مرمر .

وخف إليها يستقبلها في سرور ويمد لها يديه ويتناول كفيها في كفيه ، كأنها كانت صديقة قديمة عزيزة رآها أمامه فجأة ، وسار بها حتى أجلسها في مقعد إلى جوار المقعد الذي كان يجتله .

قال وهو يتسم :

— دليلي اليوم في روما أجمل دليل .

فقال وقد رفت على شفيتها بسمة وتألفت عيناها ببريق الفرح :

— لا تبالغ .

فمال نحوها وقال :

— بل أقول حقا .. ماذا تشرين ؟ .. وسكى ؟

فهزت رأسها أن نعم ، وجعلت تقلب عينيها في المكان وفي الأبنجورة الكبيرة التي كانت من مادة أشبه بالعاج تظللها مظلة من قماش أخضر ، وعبرت بنظرها الردهة المرتفعة الطويلة التي صفت فيها موائد الطعام والتي كانت تطل على حديقة صغيرة ، ولكنها منسقة تنسيقا بديعا ، وقالت هامسة :

— ١٦١ —

— كورينالى !

ثم التفتت إليه وقالت :

— هل تعرف معنى « كورينالى » ؟

— لا .

— إنها مقر الملك .

وجاء الساقى ووضع كأسين مملأهما بالويسكى ثم انصرف ، وشربا كأسيهما وقال :

— أريد أن أمضى اليوم كما يمضيه الإيطاليون ، أجلس على مقهى وأتناول غذاء إيطاليا ، وأطوف ببعض آثار روما ، وأشنف أذنى بموسيقاكم الدافئة ، وأتعشى حيث يتناول نجوم السينما عشاءهم .
وقام ناهضا وقال :

— هيا يا دليلى الجميل .

وانطلقا يتحدثان حتى إذا ما وصلا إلى ميدان بربارينى جلسا على مقهى صغير يطل على الميدان ، وراح يتبع الفتيات الغاديات الرائحات بنظره ، ثم قال وهو يضحك :

— كأنى أتابع مباراة فى التنس .

ورفع كأسه يشربها وهو يقول :

— ما ألد الجلوس على المقهى !

— ألا توجد عندكم مقاه ؟

— مقاه ؟ ومن أين لنا الوقت الذى غمضيه فيها ؟ إننا نعمل من الصباح

(ليلة عاصفة)

— ١٦٢ —

حتى الخامسة مساءً وكأن سياطا تلهب ظهورنا ، ثم نعود إلى دورنا
نتأهب لتناول العشاء وقلما يتأخر عن السابعة مساء .

— ولماذا كل هذا التعب ؟

— لنجمع دولارات .. لنصبح أغنياء .

فقلت له وهى تبسم :

— ثم ماذا ؟

— نتمتع .. نعيش .. ننفق ما جمعنا هنا وهناك .

وهل أنت غنى ؟

فقال وهو يبتسم :

— لم أصر مليونيرا بعد .

ولمح فتى يلف ذراعه حول عنق فتاة وقد ثنت ذراعها وقبضت
بأصابعها على أصابعه وراحت تعبث فيها بخنان ، فقال :

— إننا نلف أذرعنا حول خصور فتياتنا ، ولكن هنا تلف الأذرع

حول الأعناق ، لماذا ؟

فقلت وهى تضحك :

— لسبين : الأول أن لف الذراع حول الخصر يفسد الثوب ،

والثانى أن لف الذراع حول العنق أمتع .

— إننى مقتنع بالسبب الأول ، أما السبب الثانى فلن أقتنع به قبل أن

أجرب .

وأشرق وجهه بابتسامة وشع من عينيها بريق أخاذ ، ونهض ونهضت

— ١٦٣ —

ثم نظر في ساعته وقال :

— لا يزال أمامنا وقت نشاهد فيه بعض الآثار .. هيا يا دلسلي
الجميل .

فالتفت إليه وقالت :

— تجيد قيادة السيارات ؟

— نعم .

— أرى أن تؤجر سيارة ، هذا أوفر وألذ .

— ولكنني لا أعرف طرقات روما .

— لو كنت تعرفها لما كنت في حاجة إلي .

— إنني أحس الساعة ونحن نتحدث أنني إنسان ، من الصعب أن
يعيش الإنسان وحده .

انطلقا يتحدثان ، قال :

— متزوجة ؟

— كنت متزوجة وانفصلت عن زوجي .

— مطلقة إذن .

— لا . ليس الطلاق ميسورا في روما ، إذا غضب الزوج من زوجته

انفصلا وعاش كل منهما حياته الخاصة .

وصمتت ثم قالت :

— وأنت ؟

ولم ينبس بكلمة ، وغاض إشراق وجهه وانتشرت فيه سحابة من

— ١٦٤ —

الكدر ، وضاق صدره حتى راح يزفر في صوت مسموع ، وحزرت أن
قواده جريح فلم تشأ أن تنكأ جروح نفسه ، ورأت أن تغير الحديث
فقالت وهي تلتصق به :

— هل رأيت فونتانا دى تريفى ؟ وهل رأيت تمثال أنهار العالم
لبرنيسى ؟

— ليس بعد .

— سترى معى اليوم ما لا تراه مع دليل آخر في شهر .

فقال وهو يضحك :

— إذن سأرفع أجرك وأجزل في العطاء .

وأجرا سيارة وانطلق بها ، فقالت :

— إلى فياليونيدا بتشولاقى .

— إننى لا أعرف شوارعكم ولا ميادينكم ، قولى : يمينا .. يسارا ..

قف .

والتصقت به حتى كانت أنفاسها تتردد على خده ، ولفت ذراعها
حول عنقه ، وراحت تعبث في أذنه ، وجعلت تقوده وتذكر له اسماء
الشوارع والميادين التى يمران فيها .

— بيازا فينسيا .. فيا دل كورسوا ..

وقادته إلى طرقات ضيقة مبلطة بمربعات من البازلت الأسود ، ثم

قالت له :

— قف .

وهبطا وسارا قليلا فوجدا أنفسهما في ميدان في صدره مبنى روماني
مجوف في وسطه ، وقام في التجويف تمثال لنبتون إله البحر وعن يمينه
ويساره في وجه المبنى خمسة أعمدة رومانية ضخمة ، وأمام نبتون تماثيل
للخيول وحوريات ينقشن الماء في روعة ، وحول النافورة كلها سور من
الحديد في نصف دائرة .

ووقف يتطلع إلى النافورة وهو نشوان يقلب بصره في المكان ، وقالت
له :

— فونتانا دى تريفي . إنها نافورة السعادة ، كل من يلقي فيها بقطعة
من العملة يعود إلى روما ثانية .

وأخرج من جيبه قطعة من ذات المائة ليرة وهم بأن يقذف بها في الماء
.. فصاحت فيه :

— لا .. لا .. انتظر .. ليس هكذا .. أعط ظهرك للنافورة وألقى
بالعملة من وراء ظهرك .

وأعطى ظهره للنافورة ، وقبل أن يلقي بالعملة قالت وهي تضحك :

— الآن فقط صدقت أنك غنى .

— لماذا ؟

— لأنك تلقي في الماء قطعة من ذات المائة ليرة ، إن ما يلقي به عادة
قطعة من ذات العشرين .

وألقى القطعة من وراء ظهره وقال :

— إننى ألقى بها كلها لأننى أريد أن أعود إلى روما خمس مرات .

— ١٦٦ —

فقلت وهى تضحك :

— هيا نعود إلى السيارة .

وانسابا فى طرقات ضيقة وهى تقول له :

— يمينا .. يسارا .

ونظر إليها من طرف عينه وقال :

— لو تركتنى هنا لما عرفت كيف أعود إلى فندقى .

— إذن حاذر أن تفعل ما يغضبى .

ولف ذراعه حول عنقها وجعل يعبث فى عنقها وهو يهمس :

— لعل ذلك يرضيك .

ووقف فى ميدان بياشا ، واقترب من المسلة القائمة فى وسط الميدان فإذا جلوس حول قاعدتها أربعة رجال أقوياء ، كانت عضلات أذرعهم بارزة فى دقة رائعة ، وعضلات بطونهم تدل على الاسترخاء ، أما أقدامهم فقد كانت نابضة بالحياة . كانت تماثيل الرجال آية فى الروعة والجلال ، وتركته يملأ عينيه من النافورة الرائعة ثم قالت :

— هذا التمثال يمثل أشهر أنهار العالم .

— وما هذا الذى يخفى وجهه ؟

— إنه النيل ، وقد رمز بايبنى بإخفاء الرأس إلى أن منابعه لم تعرف

بعد ، فإن منابع النيل لم تكن قد اكتشفت عندما صنع بايبنى هذا التمثال .

ودارا حول التمثال دورة وقالت :

— لو كان بايبنى يعرف أنكم قادمون إلينا لضم المسبى إلى هذه

الأنهار .

ونظر إلى ساعته وقال :

— هيا نتناول غداءنا .. أريد غداء إيطاليا .

وراحت تقوده في شوارع وطرقات مختلفة ، ثم طلبت منه أن يقف عند طريق ضيق ، وسارت إلى باب قديم له عقد مقوس ، فوجد نفسه في فناء لا هو بالفسيح ولا هو بالضيق ، يشقه طريق صفت على جوانبه خلف سور منخفض من الحديد مناضد حولها مقاعد ، ووجد في نهاية الفناء بابا آخر كتب عليه « أوتيللو » يقود إلى قاعة مربعة انتشرت فيها مناضد حولها مقاعد من الحديد والخيزران .

واحتلا منضدة على اليسار ، وكان بالقرب منهما منضدة التف حولها أربعة رجال وامرأتان وعاد ينظر إلى اللافتة التي كتب عليها « أوتيللو » ثم قال :

— غريب أن يطلق على مطعم اسم « عطيل » .

وما كاد ينتهى من تعليقه حتى راح ذهنه يعمل ، إن عطيل قتل دبدبونة لمجرد أنه شك فيها ، أما هو ..

وزحفت الأفكار السود إلى رأسه ، وهمت صور مأساة حياته أن تطفو على سطح ذهنه وانبثقت ينابيع المرارة في أغواره لتمده بالأسى والحقد والأشجان ، وشرد بذهنه ، ولكنها لم تتركه لنفسه فقد استدعت موسيقيين كانا يدوران حول المناضد وهما يعزفان وطلبت منهما أن يغنيا أغنية الكلب ، فراح أحدهما يغنى والآخر ينبج كجرو صغير في نهاية كل

— ١٦٨ —

مقطع ، وضحكت ومالت عليه ، وانتبه على نباح الرجل فأخذ يضحك .
وجاء الجرسون ووضع أمامهما ما طلبت ، فقالت وهى تتناول
الشوكة والسكين :

— خروف بالفرن ، هذا طبق الإيطاليين المفضل .
وراح الجالسون على النضد القريب يقصون النوادر ويضحكون
بصوت عال ، وكانت هى تترجم له ما تسمع ، وألقى أحدهم نكتة
جعلت المرأتين تضحكان ضحكا متواصلا تردد صداه فى المكان جميعه
حتى إن الأنظار كلها اتجهت إليهما .
وتأهب ليسمع ترجمة النكتة ولكنها أطبقت فمها وضاق بصمتها
فقال :

— ماذا قال ؟
— لا أستطيع أن أقول .
— لماذا ؟
— لأنها نكتة مكشوفة .
— أتسبغها ثلاث نسوة ولا أسمعها أنا ؟
— إننى لا أستطيع أن أقصها .
— اهمسى بها فى أذنى .
وألقمها أذنه فراحت تهمس فيها وأساريره تنفرج وبريق غريب يأتلق
فى عينيه ، ثم دوت ضحكته مجلجلة فى المكان حتى إن الأنظار كلها
اتجهت نحوه .

وراحا يدوران بالسياره فى أرجاء روما يطوفان بآثارها ، حتى إذا ما
خيم الليل قادته إلى فيلا جلوريا ، وهى حديقة هادئة خلف كنيسة ينجيم
عليها ظلام لا يزحزحه نور متلصص ، ولا يعكر صفو العشاق هناك
عزول .

ولف ذراعه حول عنقها ، وانسابا فى الظلام وهو يعث فى شفتها
ويحاول أن يحاكي الشبان المنتشرين فى كل مكان من الحديقة ، الذين
كانوا يمارسون الحب بقدم راسخة .
وهمس فى أذنها :

— أرى أن نرجع إلى كورنالى .

فقال وهى تضحك :

— وماذا أفعل فى مقر الملك ؟

— تصبحين الملكة لليلة .

وعادا إلى السيارة وانطلقا إلى الفندق ، وقادها إلى غرفته ، كانت
غرفة رائعة قلما وقعت عيناها على مثلها .

ولما انتبيا من العشاء ارتمت فى الفراش وراحت تغنى فى صوت حالم :
— نيبى تيبو مارشال .

وراح يمرر يده على شعرها فى حنان ، ثم مال عليها وضمها إلى صدره
فى قوة .

وأخذت تخلع ثيابها قطعة قطعة ، حتى إذا أصبحت عارية أخفى عينيه
بيديه وراح يصيح :

— ١٧٠ —

— اذهبي .. اذهبي أرجوك .

فقالت في دهش :

— ماذا ؟ هل أسأت إليك ؟

فقال وهو يترك الغرفة لا يلوى على شيء .

— اذهبي .. اذهبي .. اذهبي ..

وارتمى على أول مقعد في الردهة مبهور النفس وقد حمل رأسه بكفيه ، وراحت مأساة حياته تمر في ذهنه في تتابع سريع ، وعنف يكاد يفجر جوانحه .

رأى نفسه في نيوجرسي تاجرا ناجحا مبجلا ، يحترم الجميع ويحبه الجميع ، وكانت زوجته شابة جميلة لم يدخر وسعا في إرضائها ، وانتشرت تجارتها فكان عليه أن يسافر وأن يغيب عن بيته ليسهر على أعماله ، وما كان يعود إلى زوجته إلا وهو محمل بالهدايا ، وكان ييذل كل ما في طاقته أن يعوضها عن الحرمان الذي كانت تقاسيه في أيام غربته . وفي ذات ليلة عاد إلى بيته قبل مبعده . ورأى النور في غرفة نومه ، فراح يصعد في الدرج فقرا ليفاجئ زوجته بعودته .

ووضع المفتاح في الباب في حرص ، ودخل على أطراف أصابعه ، وفتح باب غرفة النوم ، وإذا به يجمد في مكانه لا يستطيع حراكا ، فقد رأى زوجته عارية في أحضان رجل .

وثارت الدماء في عروقه ، ومادت الأرض به ، وخطر له أن يقتلها ، ولكن قبل أن يتقضى عليها دار على عقيقه وترك المكان وخرج .

لم يستطع أن يمكث في نيوجرسي ، وحمل حقائبه ، وانطلق إلى العالم
يجوب أرجاءه ، ولكن مأساة حياته كانت تتبعه كاللعنة ، لقد ضربت
سياجا من الفولاذ بينه وبين النساء جميعا . يا طالما أغلق الباب عليه وعلى
امرأة جميلة ، ولكن ما إن يراها عارية حتى تقفز إلى رأسه صور الخيانة
البشعة ، وتلهب روحه بسياطها ، فينهار وهو يخور ويتلوى من الألم .
وقامت منكسة الرأس ، وسارت إلى الباب وهي تجر رجلها ، وتحس
طعم الإهانة في فمها ، ولكنها قبل أن تصل إلى الباب أسرع إليها ، وجذبها
من يدها في رفق ، وضمها إلى صدره في حنان ، وراح يحاول تحطيم ذلك
السياج الفولاذي الذي طوقته به الفاجعة .

الأميرة ناتاسا

حزمت حقائبي وبعثت بها إلى مكتب الطيران استعدادا للسفر إلى
أكرا في الليل ، ورحت أمضي آخر نهار لي في روما أجوس خلال
« الكاستيلو » تلك القلعة القديمة التي تضم في جوفها أروهاب السجون
وأحصن الكهوف ، والتي تشمخ حتى تطل على روما كلها تتحكم في
مسالكها ، وقد صعدت مئات الدرجات حتى بلغت سطحها ،
وجعلت أقلب نظري في نهر التيفري ، وقبر الجندي المجهول ، وميدان
سان بترو في مدينة الفاتيكان المحصنة ، وخلال الكلسيوم الضخم
الهائل ، وخلال الجموع المحتشدة في ميدان سان بترو لتوديع البابا
الراحل ، وإلقاء نظرة أخيرة على جثمانه قبل أن يوسد مثواه الأخير .
وانقضى النهار وقد بلغ مني التعب غايته ، وانطلقت إلى مكتب
الطيران وأنا أمني النفس بالاستلقاء في مقعد الطائرة ، وإسلام نفسي للنوم
اللذيذ ، ولكن ما إن بلغت المكتب حتى تبخر الأمل الحلو ، فقد قيل لنا
إن الطائرة ستأخر تسع ساعات ، وأن علينا أن نعود إلى فندق
« ريزيدنت » نغضي فيه ليلتنا .

واتجهنا إلى السيارة التي تنتظرنا وأنا أجر رجلى جراً ، وجلست في مقعد بالقرب من الباب ، وإذا برائحة عبقة عطرة نملأ أنفى ، ففتحت عيني المطقتين من التعب ونظرت ، فإذا بفتاة أنيقة غاية الأناقة ، مرفوعة الرأس ، في عينيها ثقة واعتزاز تتقدم ثابتة الخطو وتجلس في مقعد خلف مقعدى .

وهملت أكثر من مرة أن ألوى عنقى وأن أملأ عيني بذلك الجمال الصارخ الطاغى المتكبر ، ولكننى كنت أكبح جماح نفسى في جهدي ، وأتشاغل بمراقبة عيون الآخرين الموجهة إليها من كل جانب كأأنوار كاشفة سلطت على طائرة متسللة في جنح الظلام .

وانسابت السيارة تخرق قلب روما الخفاق ، ثم انطلقت في شوارع جانبية كثيرة ، وانقضى وقت كثير قبل أن نصل إلى الفندق ، وإذا بصوت الفتاة الجميلة يسرى كالسحر في السيارة .

— لكأننا ذاهبون بهذه السيارة إلى أكرا .

وابتسمنا جميعاً ولم ينبس أحدها بكلمة ، ووقفت السيارة أمام الفندق ، وفتح الباب ولم أجرؤ على النزول بل وقفت أنتظر حتى مرت بى وهبطت ، ثم هبطت خلفها .

واتجهنا إلى المكتب القائم على يسار الداخل ، وراح كل منا يذكر اسمه في صوت خافت ويقدم جواز سفره ، وقالت في صوت عال ليسمعه الجميع :

— برنسس ناتاشا .

— ١٧٤ —

وانتهى الرجل الواقف خلف المكتب من تسليمنا مفاتيح غرفنا وقال :
— يبدأ العشاء من الثامنة يا سادة .

وإذا بها تقول فى بساطة :

— أشكر لك ، ولكننى ذاهبة إلى ييازا أوجوسو إمبراطورى ، إلى
ألفريدو ملك البوتشينى .

واتجهت مرفوعة الرأس ثابتة الخطو نحو الباب وهى تنادى :
— تاكسى .. تاكسى .

واتجهنا إلى السلم الهابط الذى قادنا إلى ممر طويل ينتهى بالصعد الذى
حملنا إلى غرفنا .

واستلقيت فى الفراش بملابسى ولم أنتبه إلا على رنين التليفون وصوت
يقول لى :

— آن أوان الرحيل ، ينبغى أن تكون فى ردهة الفندق بعد نصف
ساعة يا سيدى .

ونظرت فى ساعتى فإذا بها الخامسة صباحا .

وهبطت إلى الردهة فألقيت برنس ناتاشا قائمة فى وسطها وقد
ارتدت ثوبا آخر غير ذلك الذى كانت ترتديه بالأمس ، كان بسيطا
ولكنه كان أنيقا ، ولم أدر من أين جاءت به ، ولم يكن معنا إلا الحقائق
الصغيرة التى نحملها فى أيدينا !

واقتربت منها وقلت فى صوت خافت لا يخلو من اضطراب :

— صباح الخير أيتها الأميرة .

وردت تحيتي بأحسن منها ، ومنحتني من فمها الجميل بسمه .
 وحملنا إلى المطار ، ووقفنا في الجمرک جميعا أمام حقائبنا ، ولكنها
 سارت إلى مكان الانتظار والكل يحنون لها رعو سهم تحية ، ويتسابقون
 إلى خدمتها ، وقبل أن تحمل حقيبة من حقائبنا كانت حقائبها قد انتقلت
 إلى الطائرة في حرص وعناية .

وآن أوان الرحيل ، وسارت على رأسنا إلى الطائرة كأنما كانت
 تقودنا ، وقادتها المضيفة إلى مقعدها وقادتني إلى مقعدي ، فإذا بي أجلس
 أنا والأميرة جنباً إلى جنب .

ووضعت حقيبتى على الرف ، وقبل أن أحتل مقعدي رفعت عينيها
 إليّ وقالت :

— أنت سعيد أيها الشاب .

وابتسمت وأنا أجلس دون أن تتحرك شفتاي بكلمة ، وقالت في
 نقة :

— لأنك ستمكث إلى جوارى اثنتى عشرة ساعة .

فقلت في دهش :

— اثنتا عشرة ساعة .

فقال وقد رفعت حاجبا واغمضت عينا نصف إغماضة :

— هل يضايقك أن تكون معى اثنتى عشرة ساعة ؟

— بل يسعدني أن أكون من رعاياك دواما ، ولكننى ما كنت أظن أننا

سنقطع المسافة فى اثنتى عشرة ساعة .

— ١٧٦ —

— وهل ركبت الطائرة دون أن تدري كم ساعة ستقضى فيها ؟
— قلما تهمنى التفاصيل ، كل ما يهمنى أن أركب من روما وأن أهبط
في أكرا .

فالتفتت إليّ بصدرها وقالت :
— اسمع يا عزيزى ، العمل الرائع لا يكون رائعا إلا بدقة تفاصيله .
فقلت وأنا أجول بعينى فى وجهها :
— أظن أن ذلك فى الفن .
— وينبغى عليك أن تتذوق الرحلات تذوقا فنيا ، فالسفر فن ،
والتحدث إلى الناس فن ، والتعرف بهم فن ، وممارسة الحياة فن .
وربطنا أحزمتنا حولنا وارتفع ضجيج الطائرة وهى تترك الأرض
فلزمنا الصمت ، حتى إذا ما حلقت فى السماء عدنا إلى أحاديثنا ،
قالت :

— نبدأ بتعريف أحدنا بالآخر ، أنا برنسس ناتاشا ، روسية ،
ولكننى عالمية الجنسية .
فقلت مقاطعا :
— ولكن ليس هناك أمراء بين الروس .
— إننى من الروس البيض الذين فروا من الشيوعية .
— ولكنك أصغر من أن تكونى ممن شاهدوا العهد .
— إننى ابنة أمير روسى فربنفسه من الثورة ، وقد ولدت فى سويسرا
بعد ذلك بسنوات .

— هذا جائز .

فقلت في حدة خفيفة :

— بل هذا صحيح . وأنت ؟

— أنا مصرى .

وأشرق وجهها وقالت :

— أنت عربى ؟ هذا جميل .. هذا جميل .. إننى أتعلم العربية ، وفي
حقائبي كتب عربية كثيرة .. سنتحدث عن ذلك فيما بعد .. أكمل .
— وأنا موظف بسيط في شركة مصرية بعثتنى أبحث في غانا عن
أسواق لسلعها .. إننى لست ابن أمير ولا ابن باشا ولست من الطبقة
الأرستقراطية .. إننى ابن فلاح يعمل في حقله من مطلع الشمس حتى
غروبها .

ورمقتنى طويلا وقد رفت على شفيتها بسمة ساخرة ، ثم قالت :

— إننى لم أصدق كلمة مما قلت .

— لماذا ؟

— لأنك لو كنت موظفا صغيرا لما بعثتك شركتك لتبحث عن
أسواق لها في بلاد نائية ، ولما منحتك تذكرة سفر في الدرجة الأولى .
— ولكن هذا هو الواقع .

— إنك لا تعرف الحياة يا صديقى ، وحتى إذا كان هذا هو الواقع فلا
تذكره . أتظن أنك بتواضعك هذا ستفتح الأبواب المغلقة .. أقول لك
الحق ولا تغضب : لو كنت مدير شركتك لما وافقت على إرسالك إلى هنا
(ليلة عاصفة)

أو إلى أى مكان آخر من العالم قبل أن تتلقن فن الحياة . لم يعد هناك مكان للتواضع على الأرض ، إذا أردت أن تنجح فاطرق الأبواب فى قوة تفتح لك ، قل إنك مالك الشركة أو صاحب أكبر رأس مال فيها ، وتحدث عن قصورك وسياراتك ومصايفك ومشاتيك ورحلاتك ، وعن الصفقات الكثيرة الناجحة التى عقدتها مع الدول الأخرى ، فسيصغون إليك .. سيعيرونك سمعهم .. سيحنون لك الرءوس ويفسحون لك الطريق وإن حسدوك فى أعماق قلوبهم .

إننى أميرة ، ولكن هذا وحده لا يكفى ، لابد من موهبة أخرى أعتمد عليها ، لذلك مارست كتابة القصص ، إن هذا يسرلى أن أدرس أنفى فى كل شئ ، وأن أمارس تجارى فى حرية . فقلت وأنا أمد عيني إلى صدرها الشاخ :

— إن جمالك وحده يكفى ، إنه جواز المرور فى كل مكان .

— قلت لك يا صديقى إنك فى حاجة إلى أن تلقن الحياة ، هذا الجمال سيذبل يوما ، فعلى أن أتسلح بسلاح آخر ، ولا أحسب أن هناك سلاحا بعد الجمال أمضى من الشهرة ، لذلك أكتب القصص الآن وأجوب العالم وأنا جميلة ، ليعتاد الناس على أن أكون فوق رموسهم دوما . وصمتت قليلا ، وكأنما خشيت أن ينقطع حبل الحديث بيننا فقلت لها :

— أين كتبك العربية ؟

— فى حقيبتى .

وقامت تحضر حقيقتها الموضوعه فوق الرف فانحسر ثوبها عن ساقين جميلتين ، والتصق بأردافها ودار معها حيث تدور ، فبدت مفاتها تكاد تصرخ إغراء ، وعادت إلى مقعدها ووضعت حقيبتها على الأرض ، وأخرجت منها كتابا دفعت به إلى ، فتناولته وقرأت : « اللغة العربية وقواعدها » ، تأليف « الدكتور يوحانان كابلغاتسكى » طبعة « روبين ماس » (القدس ١٩٤٠) .

وقلبت صفحات الكتاب ، ثم أعدته إليها وأنا أقول :
— ييهجنى أن أسمعك وأنت تقرئين العربية .

وفتحت الكتاب وراحت تقرأ فى ثقة :
— الهرتان والقرء ..

وانطلقت تقرأ وأنا أصوب لها نطقها ، وقرأت فيما قرأت :
— وفال ..

وقلت مصوبا نطقها :
— وفعل ..

وأمسكت بورقة وراحت تكتب : « د ، ض ، ق ، ك ، ت . ط ،
ذ . ظ » ثم قالت :

— إننى لا أستطيع أن أفرق النطق بين كل حرفين من هذه الحروف .
وجعلت أنطلق لها كل حرف وأطلب منها أن تردده خلفى ، وكان نطقها غريبا فضحكت على الرغم منى ، وشاركتنى فى ضحكى حتى مال رأسها ومس صدرى .

— ١٨٠ —

وتناولت الورقة وكتبت :

He said : I love you —

ثم قالت :

— اكتب هذا بالعربية .

فتناولت منها القلم والورقة وكتبت :

— قال : أحبك .

والتفت إليها وقلت :

— من قال هذا ؟

قالت في هدوء :

— أى رجل كيس وظريف .

— حقا من يقول هذا لابد أن يكون كيسا وظريفا ، ولكننى للأسف

لست كيسا ولست ظريفا ، فلو كنت كيسا لقلت هذا القول المأثور
قبله .

وصمت وأطرقت برأسى ، فراحت تعيد كتابها وورقها وقلمها إلى

حقيبتها وهى تقول :

— لا تقنط : لم يفتك بعد قطار الحياة ، تستطيع أن تتعلم سريعا إذا

كانت عندك رغبة أكيدة فى تذوق ما فى الدنيا من جمال .

وقامت وتركتنى وذهبت ، وجعلت أبحث عنها بعينى فى كل مكان

فى الطائفة ولكنها كانت قد اختفت ، كأنما كانت طيفا زائرا ثم غاب .

وحاولت أن أتمدّد فى مقعدى وأن أستقر فيه دون جدوى ، فقد كنت

أتلفت بين الفينة والفينة أنقب عنها ، وأخيرا لمحتها قادمة فجعلت أنفرس فيها دهشا ، لم أفطن إلى أين ذهبت ومن أين عادت ، ووقفت عند رأسى وقالت :

— لماذا لم تتبعنى ؟

— إلى أين ؟

— إلى تحت .

ولم أفقه مما تقول شيئا ، وإذا بها تمد يدها إلى وتجدبنى من يدى فأسير خلفها وأنا صامت لا أدرى أين نذهب .

وعند منتصف الطائرة وجدت بابا صغيرا يبدأ بسلم يقود إلى بطن الطائرة ، وهبطت وأنا خلفها ، وإذا ببار صغير حوله مقعد نصف مستدير صفت فوقه حشايا وثيرة والتفتت إلى وقالت :

— أتحسب أيها التاجر الكبير أن الأعمال الهامة تجرى فى المكاتب ؟ إن كنت تحسب ذلك فأنت واهم ، وخير لك أن تعود من « كانو » قبل أن تصل إلى أكرا ، إن أعظم الأعمال لا تتم ، وأكبر الصفقات لا تعقد إلا حول مائدة عليها كئوس يتوسطها جردل به ثلج حول زجاجة شقراء أو فى لون النييد ، هل تعرف النييد ؟

— لا .. أعرف الكوكاكولا .

وتناولت زجاجة كوكاكولا وجعلت أشربها وأنا أصغى إلى الحديث الدائر بين الرفاق القادمين من بلاد شتى ، وقد ربطت بينهم ساعات الرحلة الطويلة التى كانت تمر فى ببطء شديد .

— ١٨٢ —

وجاء المضيف يلتمس منا أن نعود إلى أماكننا لتناول الغداء ،
وهممت بالنهوض والانصراف فقد ضقت بالمكان ، ولكنني آثرت أن
أترث حتى تقوم ، فقد كانت قطب الرحي ومركز الإشعاع .
وقامت وصعدت ونحن خلفها كأنما كنا من الأتباع ، واحتللنا
أماكننا ، والتفتت إليّ وقالت :

— أنت محظوظ لأنني سأخلدك في قصة من قصصى .
فقلت وأنا ألوك قطعة من الدجاج الجاف الذى تعذر على السكين
قطعه :

— أشكر لك هذا التشریف .
— كم يوما ستمكث في أكرا ؟
— عشرة أيام أو أسبوعين .
— ما رأيك في أن تلقننى كل يوم درسا في العربية ، مقابل أن ألقنك
دروسا في فن الحياة .

— هذا اتفاق جائر .
— لماذا ؟
— لأننى أنا الكسبان .
لا تنظر إلى الأمر بعقليتك التجارية ، بل انظر إليه نظرة فنان ، إن كل
أخذ يقابله عطاء .

— ومن أين لى هذه النظرة ؟
— قل لى أولا هل اتفقنا ؟



ولكنى آثرت أن أترى حتى تقوم ،
فقد كانت قطب الرحي ومركز الإشعاع

— وهل يرفض تاجر صفقة رابحة ؟

وبلغنا مطار « كانو » فى الساعة الخامسة مساء ، وهبطت الطائرة
تتروذ وتتأهب لاستئناف الرحلة ، وغادرنا الطائرة ووقفنا ننظر إلى المبنى
الذى كان على هيئة قطاع فى أسطوانة ، يقوم على قوائم من الخرسانة
طلبت بلون النييد ، وطلبت حوائطه ونوافذه بلون الفستق .

وصعدنا إلى قاعة الانتظار وكانت منسقة تنسيقا بديعا ، وكان بها
دكان صغير يعرض بعض تماثيل من الأبنوس الأسود ، وبعض
المصنوعات الجلدية البدائية .

وجلست أنا وهى إلى مائدة ، وأقبل الجرسون الأسود ووقف ينتظر
أوامرنا ، فإذا بها تقول :

— وسكى وعصير فواكه .

والتفتت إلى وقالت وهى تضحك :

— إن عصير الفواكه لا يسكر .

فقلت لها :

— ما أكثر ما يسكر دون أن يكون خمرا ، وإن نشوته لأكثر متعة من
نشوة مفتعلة ، فالخمر التى نشربها من عين جميلة قد تكون أعمق تأثيرا من
زجاجة النييد ، والنشوة التى تغرسها روح قوية فى أعماق نفوسنا أبقي
من نشوة راح مترعة بأعترق خمر ، الأولى باقية متجددة والثانية سرعان ما
تنقشع ولا يبقى من أثرها إلا الصداع الذى يحطم الرعوس .

فاقتربت منى وقالت :

— تكلم .. تكلم ، أنت شئ جديد بالنسبة لى ، أحسب أنك ستكون شخصية ممتعة ، تكلم فإن كل كلمة تنطقها توحى إلى بفكرة .. تكلم .

— فأنا إذن لست بالنسبة إليك إلا مجرد مادة ، كالصلصال الذى يصنع منه المثال تمثاله ؟

— إن المثال يا عزيزى يحب تمثاله بعد أن يتشكل أكثر مما يحب كثيرا من البشر .

— إنه أنا ، إنه لا يحب تمثاله ولكنه يحب نفسه ، يرى عبقريته التى يهيم بها مجسمة فيه .

— ومن من البشر يا عزيزى ليس أنانيا ، فلتحدث بصراحة ، لماذا تلازمى كظلى منذ بدء الرحلة ، ستقول لأننى جميلة وتحسب أنك ستفحمنى بهذا الرد ، ولكننى أقول لك إنك تلازمى لأنك تريد أن تسعد وحدك بهذا الجمال ، أليس كذلك ؟
— أظن ذلك .

— بل هذا هو الواقع ، لو حللنا مشاعرنا فى أمانة لما أضفينا على أفعالنا كثيرا من النعوت الخلابة الخداعة .

— ماذا تقصدين ؟

— أقصد أن كثيرا من أفعالنا التى نردها إلى جانب الخير فى أنفسنا ليس منبعها الخير ، فأنا مثلا قد أجدك مفلسا فى مدينة فأمدك ببعض المال ، لا عن خير متأصل فى أعماقى ، بل لأننى أريد أن أرضى غريزة التفوق فى

— ١٨٦ —

نفسى ، وأن أشعرك أننى أقوى منك .

فقلت لها لأرضى غرورها :

— إن مادتك وفيرة أيتها الأميرة .

واعتدلت فى مقعدها وقالت :

— هل قرأت شيئا مثل هذا من قبل ؟

— أبدا .

— ألم تقرأ مبادئ علم النفس ؟

— وأين لتاجر مثلى مثل هذه الكتب ؟

ووافى ميعاد مغادرة « كانوا » فعدنا إلى مقاعدنا فى الطائرة ، ولما

أخذت طريقها فى السماء مالت الأميرة نحوى وقالت :

— أحس رغبة فى أن أفضى إليك بحقيقة أمرى .

فقلت وأنا أبتسم فى سخرية :

— هل ذلك تحقيق لرغبة خيرة جاشت فى نفسك ؟!

— أبدا ، بل رغبة فى أن يزداد أحدنا قربا من الآخر ، إننى لست

أميرة ، ولم أكن فى يوم من الأيام من سلالة الروس البيض الفارين من

وجه الشيوعية ، ولكننى انتحلت ذات يوم شخصية أميرة روسية

فتفتحت السبل فى وجهى ، وعز على بعد أن أحرزت ذلك النجاح أن

أفخلى عن سحرى ، فاحتفظت بشخصية الأميرة من ذلك اليوم .

وصمتت وراحت تنظر إلى كائما تستشف فى وجهى وقع حديثها ،

وتنحنت ثم قلت :

— ما دمت قد أفضيت إلى بحقيقة أمرك ، فسأحدثك في صدق عن شخصيتي ، إننى مصرى أجوب أرجاء العالم لأجمع مواد قصصى وقبل أن أتم حديثي انفجرت ضاحكة وقالت :

— كم أنا مسرورة ! ما كنت أحسب أن مجرد إصغائك إلتى سيبدلك كل هذا التبدل ، لقد قلت لك إن القطار لم يفتك بعد ، وها أنت ذاتبت أنك تستطيع أن تكون تلميذا ناجحا ، ولكن لا بأس إذا كان خيالك قد قصر عن أن يمدك بمهنة أخرى غير كتابة القصص : المهن التى تستطيع أن تجذب بها اهتمام الناس كثيرة ، تستطيع أن تقول إنك بطل العالم فى الشطرنج ، أو أنك قد عبرت المانش سباحة ، أو أنك ضربت الرقم القياسى فى سرعة السيارات . إن هناك أشياء كثيرة : بداية طيبة على كل حال ، وستعلمك الأيام والظروف كيف تختار ميدان التفوق الذى يجعلك محط إعجاب الناس .. استمر .

قلت وأنا أنظر إليها دون أن تختلج عيني خلجة :

— إننى قصاص مصرى ، وسأكتب قصتك ، ولكن حذار فإن عيبي أننى أسرد الواقع كما هى حتى الأسماء قد لا أعمد إلى تغييرها . واعتدلت وقالت فى لهجة أستاذ :

— ليس هناك يا عزيزى واقع فى القصة كما هو واقع فى الحياة ، حتى المشهد الذى تنقله من الواقع لا يمكن أن تنقله كما هو ، لأنك تصوره من خلال نفسك .

وابتسمت ابتسامة عريضة وقالت :

— ١٨٨ —

— ستصبح شيئاً آخر بعد أن ألقنتك دروس الحياة .
ودنونا من أكرأ وتأهينا لمغادرة الطائرة ، وإذا بها تلتفت إلى فجأة
وتقول :

— أين ستنزل ؟

— لا أدري بعد .

— ألم تحجز مكاناً قبل وصولك ؟

— أبدا .

— وهل هناك من ينتظرك في المطار ؟

— إننى لا أعرف أحداً في أكرأ .

— إن المثال يا عزيزى يحب تمثاله بعد أن يتشكل .

— سأنزل فى أى فندق ألقاه .

— ليس فى أكرأ إلا فندق واحد كبير ، ولن تجد فيه مكاناً .

وحملت حقيبتى وهبطت خلفها ، والتفتت إلى وقالت :

— اذهب إلى فندق أمباسادور ، فإذا لم تجد لك غرفة ، ولن تجد ،

فخذ مفتاح غرفتى ، قل لهم : غرفة البرنسيصة ناتاشا ، وانتظرنى حتى

أعود ، فقد ألقنتك الليلة الدرس الأول فى كتاب فى الحياة .

فناء من خسانا

١

حتى « كانتو نمتس » في أكرا . إنه لا يختلف كثيرا عن أحياء أكرا الراقية . طرقات معبدة ، وأعمدة النور الأبيض على جانبي الطريق ، ومجموعة من « البانجالو » المتقاربة ، و « البانجالو » منزل من طبقة أو طبقتين سقفه مخروطي الشكل من القرميد الأحمر ، وحوائطه مطلية باللون الأصفر ، وحوله سور خشبي من لون القرميد ، إنه منزل على غرار المنازل في الريف الإيطالي .

وأغلب النازلين في حتى « كانتو نمتس » من الإنجليز الذين يعملون كمستشارين في الوزارات ، وإن التقاليد البريطانية لتبرز بوضوح في هذا الحى ، وإن كانت هي السائدة في جميع الأحياء الأخرى ، حتى الحى الذى قامت فيه السوق الوطنية الكبيرة .

وعلى ناصية حتى كانتو نمتس قام منزل من طبقتين ، يطل على الطريق وعلى الأرض الفسيحة الخضراء التى انتشرت فيها أشجار الليمون وبعض أشجار النخيل وأشجار ضخمة لا تنبت إلا فى المناطق الاستوائية .

وفى غرفة السفرة التى كانت من الطراز الإنجليزى راحت جانيت تعد المائدة لشخصين ، وكانت فى لون البن المحمص ، واسعة العينين لا

يشوب بياضهما صفرة ، ولا سوادهما الداكن شحوب ، مقوسة الحاجبين يكاد شعرها الغزير أن يلتقى عند منبت أنفها المفلطح الأفطس ، غليظة الشفتين وقد طلتهما « بروج » فاتح ، مستديرة الذقن ، يتدلى من أذنيها قرط دقيق ، خشنة الشعر لم تتركه على حاله كما فعل أترابها بل كانت تستعين بالزيوت والمراهم على أن تزيل خشونته .

لم تكن تلتحف بإزار من قماش بنى فيه بعض النقوش الفاتحة ، أو أزرق مزركش ببياض ، أو أى أنواع الأقمشة المصنوعة من ألياف صناعية مستوردة من اليابان ، بل كانت ترتدى ثوبا أنيقا من لندن ، قدمه إليها ألبرت هدية يوم عاد من إجازته السنوية التى يمضيها دائما فى بلاده . واتجهت إلى الردهة وفتحت الراديو ، فسرى صوت المغنى الغانى فى المنزل ينفث السحر ويبعث النشوة ويفتح عوالم الأحلام ، فراحت جانيت تهز أراذفها وتتمايل طربا وهى تعد السفرة ، فما من امرأة أو فتاة فى غانة لا تهتز إذا مس أذنيها النغم حتى إذا كانت فى الطريق .

وسمعت صوت سيارة قادمة ، وأصاحت السمع ، ودق الكلاكسون دقتين متتابعتين ، إنه هو ؟ واندفعت صوب النافذة تنظر وبين جنبها خفق لذيذ . رأت السيارة الأوستين واقفة ، وألبرت يهبط منها بقامته الطويلة المنتصبه ووجهه المائل إلى الحمرة وشعره الأصفر وعينيه الزرقاوين فى لون الفيروز .

وأسرعت تنتظره عند الباب ، ولحها واقفة فابتسم فأضاءت بسمته أرجاء نفسها ، فإن تلك البسمة التى تدغدغ كل حاسة أكثر ما تحبه

فيه ، لم تستهوها قامته الطويلة ، ولا لونه الأبيض ، ولا أسلاك الذهب التي تهطل على جبهته ، ولكن أسرتها بسمته الرقيقة العذبة التي تعزف على أوتار فؤادها أعذب أنشودة غرام عبق بها جو المحبين .

وطوقها بذراعيه وضمها إليه وقبلها ، ثم سار معها وقد لف ذراعه حول خصرها حتى بلغ غرفتهما ، وبدأ يخلع ثيابه فعاونته على خلع قميصه ، ثم جلس على حافة السرير فمالت تخلع له حذاءه .

وانطلقا إلى غرفة السفارة وجلسا إليها ، وراحت تصب له الوسكى في كأسه فقال :

— وسكى ؟ .

فقالت وهي تبتسم :

— ألم نتفق ؟! وسكى في الغداء ونبيد النخيل في العشاء ؟!

— ولكننى أفضل نبيد النخيل .

— إنك لا تحتمله يا حبيبي .

— إنه يؤجج النار في روحي .

فقالت في دلال :

— يكفى أن تؤجج نارك في الليل .

واحتسى كأسه ومال عليها يقبلها .

وتناولا غداءهما ، وذهبا إلى غرفتهما فتمدد ألبرت في السرير ، وأخذت هى حذاءه وخرجت تمسحه في حنان وهى تغنى أغنية حب تنتشر بين حناياها مشاعر كالبخور العبق بالسحر ، المشبع بالنشوة .

الساعة الرابعة مساءً ، الموظفون يغادرون مكاتبهم ، والحوانيت تغلق ، والناس يعودون إلى دورهم ليستعدوا لقضاء سهرتهم في السينما ، أو في بار ، أو في بيت من بيوت الأصدقاء حيث تقدم الأنبذة والخمور ، وتشنف الآذان موسيقى هادئة ، وتمتع العيون والنفوس برقص كله حيوية وحركة .

وقد وقف تاندو أمام قطعة من مرآة مكسورة علقها في غرفته يسوى شعره المفلفل ، وارتنى قميصه النظيف الأبيض المخطط بخطوط زرقاء ، وبنطلونه الأزرق القصير ، ودس رجليه في نعاله بعد أن غسله .

وهبط مسرعاً إلى الطريق وهو يتلفت ، وخطر له أن ينادى تاكسيا ، فالمسافة بعيدة بين الحى المتواضع الذى يسكنه وبين حى « كانتو نمتس » ، ولكنه كان فى أشد الحاجة إلى الشلنات الثلاثة التى سيدفعها للتاكسى ، فهى ذخيرته التى أبقاها ليواجه بها جذب أيام الشهر الأخيرة التى يمضى أغلبها على طعام واحد يتناوله فى اليوم مرة .

وسار تاندو مهرولاً فى الطريق ، لا يلتفت إلى البضائع المكدسة على جانبيه وقد وقف خلفها نسوة لتلبية طلبات المشترين ، ولم يفكر فى أن يقف عند بائعة الذرة التى اعتاد أن يقف عندها كل يوم بعد مغادرته

للمحل ينتظر « كوز » الذرة الذى يشوى على الفحم ، فقد كان مشغولا بالفكرة التى استولت عليه ، والدم الحار المتدفق الذى يجرى فى عروقه يكاد يصهر رأسه .

ووقف يتململ ، وأخيرا أقبل الأتوبيس ، وهو سيارة بدفرد ، لا هى سيارة كبيرة ولا هى سيارة ركوب ، فى مقدمتها مكان للسائق وحده ، وصفت فى فراغها مقاعد من الخشب ، سقفها منخفض حتى إذا جلس على المقعد رجل طويل كان عليه أن يحنى رأسه . واندس تاندو بين الكتل البشرية التى حشرت فى السيارة ، واندفعت السيارة تهب الأرض ولكن مشاعره كانت تسبقها ، كان يود أن يصل إلى « كانتو نمّس » قبل أن يعود ألبرت إلى بيته بعد أن يتناول شاي الساعة الخامسة فى النادي .

ووقف الأتوبيس بعيدا عن الحى ، وانطلق تاندو يغذ السير وفى وجهه عزم وبين جنبه مشاعر مختلفة من الأمل واليأس ، من الرهبة والرغبة ، من العنف والحنان .

وطرق الباب خافق القلب ، وفتحت جانيت ، ولما رآته بان الدهش فى وجهها وانتشرت سحابة من الضيق فى صدرها ، ولكنها فسحت له الطريق وقالت وعلى شفيتها بسمة باهتة :

— تفضل .

ودخل وجلس فى المقعد القريب من الراديو وجلست جانيت قبالة ، وساد بينهما صمت قلق مدة ، ثم قال تاندو :

(ليلة عاصفة)

— ١٩٤ —

- جئت يا جانيت أعرض عليك الزواج مرة أخرى .
- قلت لك يا تاندو أكثر من مرة إننى آسفة .
- ولكننى أحبك يا جانيت ، وأنا أقدر رجل على إسعادك ، لقد تزوج جميع أصدقائنا ، تومو كورو وباردو وجريما ونانا وأنجبوا أطفالا ، لو أننا قد تزوجنا مثلهم لكان لنا اليوم ولدان .
- قلت لك يا تاندو إننى أحب ألبرت .
- وما نهاية هذا الحب ؟
- نهاية كل حب الزواج .
- أنت واهمة يا جانيت إن دار بخلدك يوما أن ألبرت يتزوجك .
- ولماذا لا يتزوجنى ما دمت أحبه ويحبنى ؟
- لأنه سيضطر إلى العودة إلى بلاده يوما .
- وماذا فى ذلك ؟ أذهب معه .
- أتظنين أنه يقدمك إلى أهله وأصدقائه ويقول فخورا : أقدم لكم زوجتى . لا لا يا جانيت هذا لن يكون أبدا .. فكرى .. فكرى جيدا .
- لقد فكرت واقتنعت . إنه يفخر بى ، يستصحبنى كلما ذهب إلى سينما أوديون أو سينما ركس ، ويقدمنى إلى أصدقائه فى الألباسادور وهو يقول : زوجتى . إننى زوجته يا تاندو ، زوجته أمام الله والمجتمع .
- هذا خداع ، هذا خبث ودهاء ، لقد نفث فيك سمومه ، وزين لك الزيف حتى بدا لك حقيقة ، إنه يقدمك هنا لأصدقائه ويقول : زوجتى لأن الجميع هنا يعرفون الحقيقة ، يعرفون أن زوجتى هى الكلمة

المهذب لخليلتي ..

— تاندو .. اسكت .. اسكت أرجوك .

— تخشين أن تنهار أو هامك ، أن تنقشع الغشاوة عن عينك ، أن تنبلج

لك الحقيقة المرة البشعة ..

— غيرتك العمياء تصور لك كل هذه البشاعة ، تجعلك تنطق سما ،

تقذف حملك كبركان نائر مدمر . إنه لما يملأ نفسك مرارة أن تقتنع

أننى أستطيع أن أسعد معه ، إننى لست أول وطنية تزوجت أجنبيا ، بل

بريطانيا على التحديد ، فقد تزوج وزير المالية السابق فتاة من غانا ولا

تزال زوجته . وأنجب منها ثلاثة أبناء متفتحين كزهورنا البرية الندية ،

إنك تعرف أننى سعيدة ، فلماذا جئت تعكر صفو حياتى وتزرع بذور

الشك فى نفسى الصافية ؟

— إننى أحبك يا جانيت ، ولا أزال أحبك ، وسأظل أحبك ، وإن

هذا الحب هو الذى يدفعنى إلى بثك ما أؤمن به ، ولو وسوست لى نفسى

أن غيرتى هى التى تحرك يائى لأطبقت فى وصبرت على النار التى ترعى

فى أحشائى ، ماذا إذا أنجبت له ولدا ، هل ستشدينه إلى ظهرك بإزارك ؟

وإذا حملك إلى بلاده فكيف تعيشين فى عالم غريب ؟

— إذا أنجبت له فسيكون لأبنائى مربية تعنى بهم ، وإذا حملنى إلى

بلاذه فإننى أعرف كيف أتصرف ، إننى أذهب معه هنا إلى كنتجزواى

وإلى أوديون وإلى الأمباسادور وأتصرف كأية أوروبية مهذبة .

— الأمر ليس أمر تصرف فى محال أزياء وسينما وفنادق يا جانيت ،

الأمر أعمق من هذا .

ومد يده وأدار الراديو فانبعث صوت المغنى الغانى عذبا حنونا ،
وسرت الموسيقى رقيقة فياضة بالعواطف جياشة بالأحاسيس ، وقال :
— هذا الصوت .. هذه الموسيقى .. الأرض الطيبة التى ندرج
عليها .. حقول الكاكاو .. هجير الشمس .. أصوات الباعة فى
الأسواق .. ضحكات الصباح .. دموع الأهل .. كل هذه أنا
وأنت . لو انتشلك أحد من هذا الجو فأنا يقضى عليك . ستكونين
كسمكة أخرجت من الماء .. ستموتين اختناقاً .

وأسرعت إلى الراديو تغلقه وهى تصيح :

— اسكت .. اسكت ، فما جئت إلا لتعذبنى .

وروقت مبهورة النفس وقالت :

— اسمع يا تاندو ، إننى قد عزمت ولن يثنىنى كلامك عن عزى ،

فما كان لأى قول أن ينزع الحب من سويداء القلوب .

ونفض تاندو وسار نحو الباب ، وقال وهو يلتفت إليها من فوق كتفه

وفى عينيه بريق حب صادق :

— إننى ذاهب يا جانيت ، وقبل أن أذهب أعود وأقول إننى أحبك ،

وسأظل أحبك ، وسأظل أحبك ، ولن أتخلى عنك ما حييت .

وأغلق الباب خلفه وذهب .

٣

ومرت الأيام مترعة بالسعادة ، وجانيت تعيش في حلم بهيج ، تنتقل مع من خفق بجبه قوادها بين دور السينما القليلة المنتشرة في المدينة والنادى والفندق المتألق بالأنوار الحمراء والخضراء والصفراء ، والذي تحفّق بين جنباته موسيقى راقصة تفعمها بالنشوة أكثر من ككوس الويسكى والجن التى تشربها فى البار .

كانت تحمّذى به ، تقلده فى كل ما يفعل ، وتطيع طاعة عمياء أوامره ونواهيه ، فقد كانت مفتونة به حتى أنها كانت ترى فى كل تصرفاته الحكمة والسداد والقذوة التى ينبغى عليها أن تعمل لها .

وكان يحيطها بعطفه ويغدق عليها كل حنانه ، فكانت دنياه جنتها ، وقربه منها هو الوجود ، والبسمة التى ترف على شفثيه البلسم الشافى من ذلك القلق الذى بدأ ينبت فى أغوارها السحيقة ، فقد اقترب موعد سفره إلى بلاده ليقضى إجازته السنوية ، ولقد سافر وعاد إليها أكثر من مرة ، ولكن ما بالها تنكر منه بعض تصرفاته وإن كان يبالغ فى إظهار عطفه وحبه وحنانه ١٢.

وجلسا ذات يوم إلى المائدة ، وإذا بجانيت تطرق ساهمة وقد اكتسبى وجهها بمسحة من الأسى ، فالتفت إليها وقال :

— ١٩٨ —

— جانيت ! ماذا بك ؟ .

ولم تحر جوابا .

ومد يده إلى ذقنها ورفع وجهها وقال :

— جانيت : ماذا جرى ؟ .

وقالت دون أن تحرؤ على أن ترفع عينها :

— قلبي يحدثني أنك ذاهب ولن تعود .

وانهارت من عينها الدموع ..

وخف إليها يكفكف دموعها بظهر يده ، ويضمها إلى صدره ويربت

على ظهرها بكفه ، ولم يجد ما يقوله فظل صامتا يعبث بيده الأخرى في

شعرها .

وقالت في توسل :

— ألبرت .. قل إنك ستعود ، وأنتك تحبني وستظل تحبني .. آه لو

جف فيض حبك فإنني لن أعيش .

فقال في صوت هادئ :

— جانيت ، ألم نتعاهد على الزواج ؟ .

فهزت رأسها أن نعم .

فقال وهو يزاد قربا منها :

— ألم نتفق على أن أحملك معي يوم أعود إلى بلادى ؟ .

فهزت رأسها أن نعم .

فقال وقد ألصق خده بخدها وراح يمس في أذنها :

— ١٩٩ —

— سنعلن زواجنا على الملأ في لندن .

— وهل ستحملني معك ؟ .

— سأسافر لأهيب العرش السعيد ، ثم أبعث إليك لتلحقى بى .

ووضع جبهته على جبهتها وقال :

— لا أحب أن أرى الوجه الجميل وقد غام تحت سحابة من الكدر

البغيض ، ابتسمى .

وابتسم فأحست كأن جميع همومها انقشعت ، وأشرق وجهها

بابتسامة صافية منبعثة من قلب مؤمن بكل ما ينطق به الحبيب .

وجاء يوم الوداع ، وانطلقت معه إلى المطار حزينة كئيبية ، ولولا

ذلك الأمل الذى غرسه فى نفسها لماتت كمدا ، ومد يده يصافحها

فتطلعت إليه فى ابتهال تطلع العابد إلى إلهه ، وقال :

— سأبعث إليك .

وابتسم ولكن نفسها كانت قائمة ، لم تبدد بسمته ركام الظلام الجاثم

على روحها ، وضمها إليه فى قوة وجعل يلثمها ثم قال :

— ابتسمى يا حبيبى ، فما أحب أن يكون آخر ما تلقينى به هذا

الوجه العبوس .

وأحست كأن خنجرا مسموما يغوص فى قلبها ، وأن نارا حامية

تكوى قلبها ، وأن يدا قوية تكتم أنفاسها ، وأن مشاعر قاسية تتمدد فى

صدرها حتى تكاد أن تمزقه ، ولم تقو على كتمان الثورة المتأججة بين

ضلعوها فانفجرت تبكى وتنتحب .

— ٢٠٠ —

وانطلق إلى الطائرة دون أن يتلفت ، وأسرعت خلف السور تنظر ،
تحس أن روحها تفر من بين جوانبها ، وأقلعت الطائرة وحلقت في الجو
واتخذت طريقها إلى المجهول ، وانصرف المودعون ، وبقيت وحدها وقد
تسمرت إلى الأرض تتطلع إلى السماء .

٤

وراحت جانباً تنتظر الرسالة التي سيبعث بها ألبرت يخبرها فيها أن
تعالى فقد انتهى إعداد العش الجميل ، ولم يخالجها شك ولم تندس إلى
نفسها ريبة ، فإن الإله إذا قال فعل ، وإذا وعد بر بوعده ، وما كان من
طبع الإله أن يخون .

وراحت الأيام تمر وثيدة وثيدة ، وجانباً تتجمل بالصبر ، وتمنى
النفس بالأمانى ، وتلمس للحبيب المعاذير .

وانقضت ستة أشهر طويلة مملّة ممضة لكأنا كانت دهراً ، كانت
تسأل فيها ساعى البريد كلما مر بحيا عن رسالة لها ، وكانت تتلقى الرد
فى كل مرة هزة نفى من رأسه ، ونظرة استخفاف تلمع فى عينيه كالبرق
الخاطف ما أسرع أن تختفى ، وعرفت مواعيد وصول البريد فلم تكن
لتنظر حتى يقدم الساعى لتسأله ، بل كانت تذهب إلى مكتب البريد
تستفسر عن أملها الذى بدأت دعائمه يهتز فى أعماقها .

هل تكفر بالههها ؟ هل يجوز عليه الكذب والخداع وخلف الوعد ؟
هيات ، فما زالت فى نفسها بقية من يقين .

ووقف تاندو بعيداً يرقبها ، يحترم أساها وإن كان يحس نياط قلبه
تتمزق ، ولا يجرؤ أن يقتحم عليها معبدها حتى لا تلج فى العناد وتتشبث

بالإله المزعوم . إنه يحس أنها في حاجة إليه ليشد أزرها في محتها ، ويواسي وحدتها ، ويضمّد جرح قلبها الذي بدأ يتقيح ، ولكنه أثر أن يترث إلى أن يحين الحين .

وانبعث صوت المغنى الغانى يردد نفس الأغنية العاطفية التى انبعث بها يوم فتح الراديو فى منزل ألبرت ليدلل لها على أنها خاطئة فى قرارها الذى اتخذته يوم قالت له :

« إننى قد عزمت ولن يثنينى كلامك عن عزمى ، فما كان لأى قول أن ينزع الحب من سويداء القلوب » فاستشعر كأن قوة تنسكب فى روحه ، وأن عزما أكيدا يسرى بين جوانحه ، فقام وانطلق إليها .
ووصل إلى بيتها فألفاها خارجة منطلقة كطيف حزين ، فراح يتبعها دون أن يجرؤ على الدنو منها .

ودخلت مكتب البريد ، ووقف تاندو بعيدا يرقبها ، ودارت على عقبيها وعادت مطاطئة الرأس ، وفى قلبها حزن ثقیل .
وأسرع تاندو إليها خافق القلب ، وسار إلى جوارها دون أن ينبس بكلمة ، والتفت ووقعت عيناها عليه ، فإذا بالدموع تترقرق فى مقلتيها ، ووجد تاندو لسانه فقال :

— جانيت ، أحبك .. وسأظل أحبك ولن أتحلى عنك ما حييت .
وألقت برأسها على صدره فأحست كأنما ألقت بهموما ، فلم تعد وحيدة ، فألى جوارها قلب صادق يخفق بحبها ، قلب إنسان كبير .

تخرج سماء روما

انتهى الليل ، وابتدأ نبض الحياة في الكباريات يرتفع ، بينما كادت شوارع روما تقفز على الرغم من الأضواء الساطعة المنبعثة من كل مكان . وخرج رواد سينما فياميتا وانتشروا في فيا دي نيكولا داتلنتينو ، وكان أغلبهم من غير الإيطاليين ، فهذه السينما هي الوحيدة في روما التي تعرض أفلاما أمريكية ناطقة بلغتهادون أن تتغير اللكنة الأمريكية إلى لغة إيطالية ممدودة .

وخرج إلى الطريق ووقف يتلفت ، فوقع بصره على فتاة أسندت ظهرها إلى الباب ثرتدى ثوبا أبيض حلى صدره بترتر يعكس الضوء عليه لون قوس قزح ، وقد ضمت إلى صدرها حقيبة من الجلد الأسود ، فوقف يتفرس في وجهها برهة ثم سار في طريقه .

وبلغ نهاية الشارع ووقف عند مصبه في فيا ليونيداى بتشولاتى ، ثم تلفت ومد بصره إلى الفتاة الواقفة عند الباب فألفاها لا تزال في مكانها ، وإن انحسرت الجموع التي خرجت من السينما .

وسرت في نفسه وسوسة فكر في أن يئدها وينطلق إلى غايته ، ولكنه ألقى نفسه يدور على عقبيه ويعود من حيث جاء ، حتى إذا اقترب منها

— ٢٠٤ —

تريث قليلا ، ثم تقدم ثابت الخطو وقال وهو يحنى رأسه :

— بنيسيرا .

فقالت وقد أسبلت جفניה على عينيها :

— بنيسيرا .

وانفتح الباب الذى كان مغلقا بينهما ، وأصبح كل شىء بعد ذلك

ميسورا ، قال :

— من روما ؟

قالت وهى تهز رأسها نفيا :

— لا من نابولى .

قال فى ابتهاج كأنما قد فهم كل شىء :

— أها .

وأشار لها برأسه أن هيا ، وسار وهى إلى جواره تصغى إليه وترد على أسئلته المتلاحقة بلا أو نعم .

واتجه إلى فيا فنيثو ، ووقف قليلا كأنما تذكر شيئا هاما وقال :

— جائعة ؟

ولم تنبس بكلمة وإن كانت ملاح وجوها تنطق أن نعم ، ولم ينتظر

جوابها بل قال :

— وأنا أكاد أموت جوعا ، أعرف مطعما جيدا هنا أذهب إليه كلما

فكرت فى أن أقضى سهرتى فى السينما ، تعالى .

وعرج فى طريق جانبي ، فإذا « برستورانى » قائم على مرتفع يطل على

الشارع يحيطه سور من حديد ، وقد سقف بتكعيبية غنب ، وشدت على وجهه أسلاك كهربائية تدلت منها مصابيح حمراء وبيضاء .
وصعدا في الدرجات القليلة الموصلة إلى « التراس » واتجها إلى نضد منعزل ، وما أن استقر عنده حتى ألفيا أنظارهما تتجه إلى السقف ، فقد تدلت منه خيوط انتظمت فيها فحول البصل والثوم وقرون الفلفل الأخضر والأحمر .

وراح جرسون يمر بين المناضد وفي يده سيخ طويل به سجع خنزير مشوى ، وجعل يوزع ما فيه على الصحاف المترتبة على الموائد ، وجاء جرسون آخر ووقف عندهما ينتظر أوامرهما ، والتفت الشاب إلى صاحبه يسألها :

— هايج ؟ فات ؟ نبيذ ؟ جن ؟

قالت وهي تنظر إلى الجرسون :

— نبيذ وحساء وإسباجتى وسجع مشوى .

والتفت الجرسون إلى الشاب ، فقال وهو يتسم :

— لم يعد لي أن أختار بعد أن أختارت السنيورا .

وانصرف الجرسون والتفت الشاب إلى صاحبه وقال :

— سنيورا أم سنيوريتا ؟

— إننى لم أتزوج بعد ، وقد أرسلت إلى بعض معارف ليبتظرني اليوم على محطة القطار ، ولكننى لما وصلت بحثت عنه دون جدوى ، ولم أدر أين أذهب ، كنت في محطة روما كالقشة في المحيط ، أوه إنها ضخمة جدا

— ٢٠٦ —

حتى إننى جعلت أجوس خلالها مذهولة ، وكدت أنسى الورطة التى كنت فيها .

— هذه أول مرة تزورين فيها روما ؟

— نعم .

فقال وهو يتسم :

— إننى لست من روما ، ولكننى أعرفها أكثر من كثير من الرومانيين ، يخيل لى أن الغريب كثيرا ما يعرف أكثر من أهلها ، فأهلها قد ينشأون فى حى من أحيائها دون أن يغادروه ، بينما هو يضرب فى أرجائها يكشف زواياها . اطمئنى فقد وجدت فى روما دليلا .

وصمت قليلا ثم قال :

— وما الذى جاء بك إلى روما ؟

— جئت أبحث عن عمل ، وكنت أعتمد على ذلك الصديق الذى لم

يحضر ..

وأطرقت برأسها ، فقال وهو يربت بيده على ظهر يدها فوق المائدة :

— يمكنك أن تعتمدى على .

ورفعت عينيها ونظرت إليه فى شكر ، وانفجرت شفتها عن بسمه

عذبة .

وراسحا يتناولان الطعام وهو يقلب النظر فيها ، إنها جميلة تمتاز بتلك الأنوثة الطاغية التى تكاد أن تكون طابع الإيطاليات ، ولكن كان فيها شيء آخر غريب ، وجه طفل وعينان عميقتان ليس لهما قرار ، كلهما

أسرار .

وغادرا المطعم ، وكان يعتزم قبل أن يقابلها أن يعود إلى بيته بالترولى
باس فهو يقطن بعيدا فى طريق المطار ، ولكنه رأى أن يكرمها فاستدعى
تاكسيا وأفضى إلى السائق بالعنوان .

واخترقت السيارة شوارع روما الرئيسية ، وأخذ يشرح لها كل ما
تقع عليه عيناها ، ودنا منها ولف ذراعه حول عنقها ، فإذا بها تلقى
برأسها على كتفه ، وانطلقت السيارة فى طريق هادئ لا يعكر صفوه إلا
صوت كلاكس أو نور كشاف سيارة قادمة .

وأطبق شفتيه وجعل ينعم بالمشاعر اللذيذة التى أخذت تنتشر فيه
كأبخرة عبقة بالنشوة ، وراح يزداد بها التصاقا ويزداد ضغط ذراعيه
عليها ، فتربو أحاسيس السعادة فى أعماقه وتلفه طلائع غيبوبة مشتتة .
ووقفت السيارة أمام بيته ، وانتظر أن ترفع رأسها عن كتفه وتهبط ،
ولكنها ظلت ملتصقة به مغمضة العينين ، وكأنها تخشى أن يوقظها من
أحلامها العذبة ، فراح يهمس فى أذنها :

— هيا يا عزيزتى ، لقد وصلنا .

وفتحت عينيها ونظرت إليه وابتسمت ، ثم تحركت لتغادر السيارة
فراح يسند ظهرها فى حنان ، واتجها إلى المصعد وما أن بدأ فى الصعود
حتى عادت تلقى برأسها على كتفه .

ووضع المفتاح فى الباب وأداره فى رفق ، ثم مد يده وأثار الردهة وقال
وهو يفسح لها :

— تفضلى .

ودخلت وأدارت عينها فى المكان ، رأت بعض لوحات على الحائط ،
ورفا أنيقا عليه بعض تماثيل دقيقة ، ومرآة وبوفيه استيل فوقه تليفون ،
وسبقها إلى الباب المواجه للردهة وفتحه وقال :

— غرفة الانتظار وغرفة السفرة .

ومدت رأسها ونظرت فألفت حيطان الصالون لصق عليها ورق
مزخرف جذاب ، والمقاعد كسيت بقماش من نايلون قريب الشبه
بألوان الحائط ، وفى زاوية من الغرفة قامت أباجورة كبيرة من
البلاستيك ، وفى الزاوية الأخرى راديو وبيك آب .

ويقسم الغرفة نصف حائط يفصل بين غرفة الاستقبال وغرفة
الطعام ، ولم يكن ذلك الفصل تاما ، فإن من يتقدم بضع خطوات فى
غرفة الاستقبال يرى المنضدة والكراسى التى صفت حولها والدلسوار .
ولم يطل مقامهما طويلا ، ولم يدلغا إلى الصالون بل سار وهى خلفه
إلى حجرة النوم ، وفتح الباب وقال :

— تفضلى .

ودخلت وبقي فى الخارج ، وألفاها تدير عينها فى المكان فمد يده
وأغلق عليها الباب ، ثم راح يطفى الأنوار ، واتجه إلى غرفة الاستقبال
وأطفأ نورها ولم يعد ينبعث فيها إلا ضوء الأباجورة الخافت الذى يضى
على المكان جوا شاعريا أنخادا .

وأدار البيك آب ، فسرت موسيقى حلالة تجلب الدفء للأرواح ،

وألقي برأسه على مسند المقعد وشرد يسعد بالأخيلة التي ولدتها الخمر
والموسيقى والأثني الجميلة التي تنلغ ثيابها في الغرفة المجاورة .
وانقضى بعض الوقت فقام إلى البيك آب وأغلقه ، وأطفأ نور
الآباجورة ثم اتجه غرفة النوم وراح يفتح بابها في حرص . ووقع بصره أول
ما وقع على ثوبها وقد ألقى على طرف السرير في إهمال ، ومد نظره إلى
الفراش فألفاها وضعت رأسها على الوسادة وتمددت بقميص النوم
كتمثال بديع ، وتقدم من السرير . ومال عليها وتفرس في وجهها
فألفاها قد راحت في سبات .

نفخ الهواء في وجهها فلم تحس به ، ومال وطبع على خدها قبله فلم تختلج
لها خلجة ، ووقف يفكر فخطر له أن يتركها نائمة وحدها وأن يذهب
إلى غرفة الخادمة يقضى فيها ليلته ، ولكنه رفض الفكرة ، فقد علمته
تجاربته أن ما لا يؤخذ مباغته لا يسهل أخذه ، وأنه لو ترك الستائر تنسدل
ستارة إثر ستارة بينه وبين امرأة فما أصعب معاودة رفعها ، ووطن العزم على أن
يقضى معها ليلته في فراش واحد .

لعلها تستيقظ ، ولكن ملاك النوم كان قد حملها معه يطوف بها
عوالمه .

وارتدى بيجامته ، وتقدم من السرير وأدام النظر إليها وفي جوفه رغبة
جامحة ، ومال ومد يده يسبل الغطاء عليها ، ثم اندس في الفراش إلى
جوارها وراح يتقلب كأنما يتقلب على جمر لا يستقر له حال .

وراح انوقت يمر وقد أرهفت حواسه ، لا يعرف النوم طريقه إلى
(ليلة عاصفة)

جفونه ، والقلق المنتشر في نفسه قلق ممض مرة ، وقلق مزيج من اللذة والألم والضيق .

وأرهقته مشاعره ، وأخيرا ضمه النوم إلى صدره الحنون ، وما استيقظ إلا وكانت الشمس تملأ الغرفة ، وفي مثل لمح البصر تذكر كل ما حدث في أمسه . فنظر بعيون مفتوحة إلى جواره فلم يجدها ، ولكنه وجد أثر يدها السحرية في كل ما تقع عليه عيناه ، فقد كانت الحجرة منمقة تنميكا عجيبا حتى كاد ينكرها .

وأزاح الغطاء وأسرع إلى المرأة يصلح شعره ، ثم خرج فمس أذنيه صوت وسوسه منبعثة من غرفة الطعام ، فخف إلى هناك فألفاها تعد المائدة ، وأشرق وجهه بابتسامة وقال :

— صباح الخير .

فقالت وهي منهمكة في عملها :

— صباح النور .. الشاى هنا أم في غرفتك ؟

فقال وهو يغادر الغرفة ويستشعر نشوة :

— سنشربه معا على المائدة .

وعاد بعد أن ارتدى ثيابه ، وجلسا معا يشربان الشاى ويتناولان

الإفطار وقال لها :

— لا بد أنك قدمت إلى روما لتعملى مديرة منزل .

فقال وهي ترنو إليه وفي عينيها بسملة لم يدر مدلولها ، فعيناها عميقتان

ليس من الميسور بلوغ قرارهما :



أستطيع أن أقسم أنني أعرف الآن مكان
أى شيء فى الشقة أكثر مما تعرفه أنت

— ٢١٢ —

— نعم . وما أكثر المنازل التي أدت شئونها !
وانتهى من تناول طعامه ومسح فمه ، ثم مال عليها وطبع على خدها
قبلة وهو يقول :

— أنت مديرة منزل رائعة .

ورفعت رأسها إليه وقالت :

— ماذا تريد أن تتغدى اليوم ؟

— سأشتري لك قبل أن أذهب إلى عملي ما نحتاج إليه .

— لسنا في حاجة لشراء شيء ، في الثلاجة دجاجة مذبوحة ولحم

مفروم ، وفي المطبخ مكرونة ، وأعتقد أن هذا يكفي اليوم .

— هل أدلك على البصل والملح والزبدة ؟

فقالت وهي تضحك :

— لا تدلني على مكان شيء ، أستطيع أن أقسم أنني أعرف الآن

مكان أى شيء في الشقة أكثر مما تعرفه أنت .

فقال وهو يقترب منها :

— سنطوف الليلة بروما معا ، وغدا نזור بعض متاحفها ، وبعد

غد ..

— بعد غد ؟

— نعم . روما واسعة تحتاج إلى أيام كثيرة للطواف بمعالمها ، ستبقين

معي حتى تعرفي روما وتستقري على رأى .

— أخشى أن أثقل عليك .

— حذار أن تقولى ذلك مرة أخرى .

وقبلها وانصرف .

وذهب إلى عمله مشئت الذهن يفكر فى برنامج يومه وغده ، وما يكاد يستقر على رأى حتى يعيد تبديله ، فكر فى أن يذهب بها إلى الكليسيوم والقلعة وقبر الجندى الجھول ، ولكن هذه الأماكن تغلق قبل الغروب ، وهو يريد أن يمكث معها حتى المساء لىتمتع بها ، ثم يخرج يطوف معها روما حتى إذا ما كاد الليل أن ينتصف عاد بها إلى البيت لىستأنف متعته . وراح يفكر فى سباحة أخرى ، أن يذهب بها إلى النافورات المنتشرة فى أرجاء العاصمة ، يحدثها عن توارىخ التماثيل وعما ترمز إليه من أفكار ، ثم ينطلق بها إلى فيلا أمبرتو ليرىها كيف يمارس الحب فى روما . ولكن النافورات متباعدة وستجهده مثل هذه السباحة حتى إنه لن يتمتع بليته .

واستمر يفكر ويقسم روما طولا وعرضا ، ويقلب الرأى وقد وضع نصب عينيه أنه يتمتع بها غاية المتعة ، وأن يطوف بها أماكن لا يجده الوصول إليها ، ولا تكون الرحلة على حساب متعته . وانقضى وقت عمله وما استقر على رأى ، وإن كان فى قرارة نفسه يفضل أن يمضى هذا اليوم معها فى البيت لا يرحانه .

وأسرع إلى الترولى باس الذى يحمله إلى بيته . وقد انتشرت فى أرجائه سعادة عارمة ، وفكر فى أن يشتري من البقال القريب من البيت زجاجة نبيذ ، ولكنه تذكر أن عنده زجاجة وسكى وزجاجة من النبيذ

الأحمر .

وشرد وقد احتلت ذهنه غرفة نومه وهو وهى ولا شىء آخر . وبلغ الترولى باس محطة نزوله فغادره قفزا وأخذ يجد في السير صوب البيت حتى كاد أن يهرول .

وصعد في المصعد وحده وهو يهز أعطافه فرحا ويدندن بأغنية مرحة ، ووقف أمام باب شقته برهة وقد ملأت رائحة الطعام النفاذة أنفه ، فأخذ يتشمم في ابتهاج ، وسكنت في روحه دنان النشوة .

وهم بأن يدق الجرس ولكنه آثر أن يفاجئها ، فأخرج المفتاح وأداره في الباب في حرص شديد ، ودخل يسترق الخطأ ، واتجه إلى غرفة الطعام فألقى السفارة معدة وقد وضع فوقها حساء ومكرونة ودجاج محمر وسلطة خضراء ، فاتسعت البسمة المرتسمة على شفتيه .. اتجه إلى غرفة النوم وفتح بابها في حرص ، وكان ينتظر أن يجدها ممدودة في الفراش ، ولكنه وجد الغرفة خالية ، وذهب مسرعا إلى دورة المياه ، فوجد ثيابه قد غسلت ونشرت ، ووجد كل شىء منسقا في المطبخ ، ولكنها ليست هناك ، ودار في الشقة دورة أخرى دون جدوى ، فقد ذهب .

وعاد إلى غرفة الطعام ونظر ، فألقى السفارة قد أعدت لشخص واحد فقط ، ووجد باب الدلسوار مفتوحا فخف ينظر فيه فلم يجد زجاجة الوسكى ولا زجاجة النبيذ ، وأسرع إلى الصوان وفتحه فإذا بالكاميرا قد اختفت وبعض النقود التى يدخرها للملمات قد ذابت ، وإذا بأشيائه

— ٢١٥ —

الثمينة قد ضاعت ، وإذا بضحكات ساخرة مريرة تدوى في أذنيه .
وارتمى في مقعدة والطعام الشهى أمامه ، ولكن نفسه عافته ،
وجعل يتلفت زائغ البصر ، ضيق الصدر ، يتميز غيظا يكاد ينفجر من
أساه .

مناجى

ميدان واسع فى أكرا تتوسطه نافورة مرتفعة ، قامت فى حوضها بعض نجوم خماسية بيضاء كبيرة وقد سلطت عليها أضواء بيضاء وحمراء هادئة ، وتصل إليها طرق المدينة المعبدة ، وعلى بعد بضعة أمتار من إحدى هذه الطرق تأتلق أضواء سينما أوديون ، وعلى بعد نفس المسافة تقريبا فى طريق آخر يصنع مع الطريق الأول زاوية حادة تتلألأ أضواء الليدو ، ثم لا شئ غير الخضرة والسماء الغائمة بسحب داكنة تنذر بهطول الأمطار فى أية لحظة ، وبعض « البنجالو » المكونة من طبقة أو طبقتين مخروطية السقف بالقرميد الأحمر .

ولو اقتربنا من مبنى الليدو لازداد المنظر وضوحا ، فعلى جانبى الطريق أشجار ضخمة من أشجار الغابة . وقد احتشدت تحت الشجرتين القائمتين أمام الليدو سيارات كثيرة من كل نوع ، من الأوستين والمارسيدس والفولكس فاجن ، وقد حملت بعضها على مقدمة سقفها مخروطا مضيئا كتب عليه « تاكسى » ، وأخذ السائقون وبعض الباعة يتسامرون ، وراح جندى يرتدى سترة زرقاء وبنطلونا أزرق غامقا وطربوشا أحمر له زر كشراية خرج تدلت من أمامه يجوس خلال

الجموع ، وباب الليدو مصنوع من خشب غير مهذب مدهون بلون أبيض وعلى جانب الباب غرفة صغيرة واجهتها من السلك البقلاوة ، بها شباك صغير لبيع التذاكر ، ولا يفتح الباب إلا بعد أن يصدر الأمر بذلك من قاطع التذاكر .

وخلف السور الخشبي الذى به الباب تقف امرأة من البوليس النسائي وإلى جوارها جندي آخر يرقبان ما يدور فى الفناء الواسع الذى صفت فى الناحية اليمنى منه مناظيد من خشب طلى باللون الأخضر وكراسى من الخشب جلست عليها شابات فى لون البن المحروق يرتدين أثوابا تكشف الصدور والأذرع والسيقان ، وقد حلقن شعورهن كالأولاد ، وتدلّت من آذانهن أقراط مختلفة ، وعلى النضد أمامهن زجاجات كثيرة من البيرة ، وقلما كان بينهن رجل . وأمام المناظيد حلقة رقص وفى قبالتها مرتفع مسقوف ، احتله أعضاء الجاز ، وإلى جوار ذلك المرتفع مبنى متواضع له باب صغير يقود إلى ردهة بها بار احتشدت فيه المشروبات حشدا .

وجلس إلى منضدة أمامية على حافة حلقة الرقص رجل أبيض البشرة يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا رماديا ، أبرز ما فى وجهه شارب أصفر وعينان مضعضتان أنهكهما كثرة الشراب وطول السهر ، وجلست معه فتاة سوداء ممشوقة القدر ترتدى ثوبا أبيض مخططا بأزرق ، مكشوف الصدر ، ضيقا عند الوسط حتى إنه يحدد خصرها النحيل ، نهايته على هيئة جرس ، إنه صاحب الليدو وفتاته المفضلة .

وكان على النضد كأسان وزجاجة « هويت هورس » وزجاجتا
صودا ، وصب الوسكى فى الكأسين وخففه يقليل من الصودا ثم رفع
كأسه وقرعها فى كأسها وقال :
— فى صحتك يا أفوا .

وابتسمت أفوا ولمعت عيناها ببريق السعادة ، فقد كانت تحبه حبا
صادقا من سويداء قلبها ، وكانت تغار عليه غيرة تتكافأ مع حبا ، حتى
إنها كانت تمنى أحيانا أن يهجر الليدو وأن يفر معها من أكررا إلى حيث
تعيش قبيلتها فى الأحراش عيشتها الطليقة البدائية .

ودوت موسيقى الجاز فى المكان ، وراح أفراد الفرقة الموسيقية يتلون
ويقصرون وهم يعزفون على آلاتهم ، وسرعان ما سرت عدوى الاهتزاز
إلى الجالسين ، فراحوا يهزون أكتافهم على الأنغام ، وأخذت بعض
الواقفات يهزون أراذلهن ، وجعلت إحدى البائعات التى تدور ببعض
الحلوى على الجالسين ترقص وتهز كل عضلة فى جسمها فى نشوة وهى
تلف بين الموائد .

وقام الشبان والشابات إلى حلقه الرقص ، وظلت الفتيات اللاتي لم
يجدن شبانا يتمايلن وهن فى مقاعدهن ، فما يستطعن كبت تعشقهن
للرقص ، وما من قوة بقادرة على منع اهتزاز أجسامهن إذا ما سكبت
موسيقى الجاز فى آذانهم .

وقام صاحب الليدو وأفوا وأخذوا يرقصان فى رشاقة ، كانا كطيفين ،
ورفع يده ويدها وبعد جسمها عن جسمه ودارت دورة سريعة فأنحسر

الثوب عن ساقين بديعتين في لون الأبنوس .

وارتفع صوت المغنى :

أو هو هو هو أجومر اليه

أجومر اليه شياشالى شياكو

أجومر اليه .. أجومر اليه

وانفصل الراقصون بعضهم عن بعض وراح كل منهم يرقص وحده
وكان أبرز الراقصين رجل مسن أسود الوجه أبيض الشعر يرتدى قبعة من
الخص الأبيض ، نحيل القد جدا راح يهز صدره وذراعيه المشنيتين في
نشوة ويهز أردافه التى لا يكاد بروزها يظهر وهو في شبه غيبوبة من اللذة
والانفعال ، وأفوا التى أخذ طرف ثوبها يرتفع من جهة لينخفض من
الجهة الأخرى حسب ارتفاع أردافها وانخفاضها والبسمة التى توجت
شفتيها واللمعة التى احتلت عينيها ، والسحر الذى لفها ، والخفة التى
اتسمت بها حركتها ، كل أولئك ينم عن السعادة الفياضة بين جوانحها .
وعاد كل راقص إلى صاحبتة ، والتصقت الأجسام مرة أخرى
وموسيقى الجاز تنفث فيها الحرارة وتشعلها لهيبا .

وارتفعت الموسيقى وأخذت في الارتفاع حتى صارت صخباً ،
وراح النافخ في البورى يقصر ويقصر ويرفع البورى إلى السماء وينفخ
وينفخ ، والأجسام تدور وتدور وتدور ، ثم توقفت الموسيقى فجأة
كأنما ماتت الحركة بعد جهد عنيف ، وعاد الراقصون إلى مقاعدهم
وملء جوانحهم النشوة .

وفتح باب الديدو ودخلت فتاة بيضاء ترتدى ثوبا ناصع البياض كالثلج

— ٢٢٠ —

ملى بدانتيلها ، شعرها أصفر وعيناها فى لون الفيروز ، وكان إلى جوارها شاب أشقر واتجهت الأنظار إلى الفتاة ، لم تكن أول فتاة بيضاء دخلت الليدو تلك الليلة ، ولكنها كانت أجملهن جميعا .

وخف صاحب الليدو إلى القادمين ، وحياهما فى ترحيب ، ثم فسح لهما مكانا وجلس معهما يحادثهما وقد طلب لهما خمرًا جيدة ممتازة .

وراحت أفوا ترقب صديقها وترصد حركاته فاستشعرت الغيرة تتحرك فى أحشائها ، ولكنها راحت تطفئها معللة النفس بأن عليه أن يرحب بزبائنه ، ويا طالما رقص مع فتيات غيرها وتودد إليهن دون أن تغضب ، فإنه لا يفعل ذلك إلا مجاملة .

وارتفعت موسيقى الجاز مرة أخرى وعين أفوا على صاحبها ، فوجدته ينهض وينحنى أمام الفتاة البيضاء يدعوها للرقص ، فأطلت غيرتها برأسها وأخذت تنهسها ، وقد أخفقت فى خلع أسنانها الحادة التى كانت تمزق فؤادها .

ورقصت الفتاة البيضاء رقصا رشيقا ، وراحت تهتز فى إغراء وتدور دورات سريعة تفيض حيوية وتكشف أسرار أنوثتها الطاغية ، وتعلقت أنظار أفوا بها ، بخلجات وجهها ، بومضات عينها ، بانفراجات شفيتها . الناطقة بالشهوة التى لا تخطئها عين مجربة ، بصدرها الناهد ، بأردافها المرحة ، بأنفاسها الحارة المترددة التى أحست حرها بين جوانحها ، واستشعرت صدرها يضيق وأنفاسها تنبر حقا .

وعادت موسيقى الجاز ترتفع ثم تصمت فجأة ، وعاد الراقصون إلى

أماكنهم وأفوا تنتظر أن يعود فتاها إليها ، ولكنه جلس هناك دون أن يلقى عليها نظرة .

ككوس تملأ وأنخاب تتبادل ، ورعوس بدأت تدور ، وزجاجات فارغة كثيرة تحمل ، وزجاجات أخرى مليئة تجلب ، وصدور داخنة بالأمل والنشوة ، وقلوب اطمأنت لآلفها بعد أن وجدته ، ولكن قلب أفوا كان وحده يمتلئ بالبغض والكراهية .

وعزفت موسيقى الجاز « هاى ليف » . إنها الرقصة الوطنية ، الرقصة المخصصة لأفوا ، وما رقصها أبدا مع غيرها منذ أن توطدت الصلات بينهما ، وراحت ترقبة قلقة متنازعة العواطف يهتف بها هاتف أنه قادم إليها ، ويسخر منها هاتف آخر ويوسوس فى صوت بغيض أنه لن يترك الليلة تلك الفتاة البغيضة التى جاءت تعكر صفوها .

ونفض وتعلقت جميعها به ، وخفق قلبها رهبة ، وتدفق الدم الحار فى عروقها ، وارتسم الجذ فى وجهها ، واتسعت عيناها كأنما تريد أن تتحقق من كل ما يختلج به كيانه .

وانحنى انحناء خفيفة يدعو الفتاة البيضاء للرقص ، ودوت فى أغوارها صرخة مكتومة كأنما سدّت إليها حربة مسمومة ، وضاقّت باللظمة القاسية التى وجهها إلى مشاعرها ، وبالجرح العميق الذى غار فى كبريائها ، فقامت نائرة ، واندفعت إلى البار كالعاصفة وراحت تجرع ككوس النبيذ فى عجلة ، ثم عادت إلى حلقة الرقص ترقص وحدها .

وجعلت ترقص كما لم ترقص من قبل ، كانت كل حركة تأتيها تعبير

عن الثورة المتأججة في أعماقها ، وراحت تبذل كل ما وسعها الجهد لتؤكد تفوقها ، وكان وجود منافستها على بعد خطوات منها يدها بقوة طاغية ما كانت تحسها من قبل .

وانتهت الرقصة وعاد الراقصون إلى مقاعدهم ، ولكن أفوا لم تكف عن الرقص ، واستمرت تهرز أعطافها وتعتصر كل ما فيها من فن متأصل ، وقد راحت تمد بصرها إلى حيث جلس صاحبها مع فتاته البيضاء .

والتفت الأنظار إليها ، حتى عيون غريميتها تعلقت بها ونظر صاحبها إليها فمشى في صدره كدر خفيف ، أحس أن أفوا قد أعلنت راية الثورة ، ولن تمر الليلة في هدوء كما كان يأمل .

واستأنف الجاز العزف وأفوا وحدها في حلقة الرقص ، وارتفع صوت المغنى :

ميكشيكاي أمينيا أماني ميكشيكاي أمينيا
أوى أوارى سم ميكشيكاي أمينيا أماني

وهرع الراقصون إلى حلقة الرقص يرقصون ، وقام صاحبها وصاحبه البيضاء وطفقا يرقصان ، والتفت عيناها بعينه مرة فقرأت فيهما غضبا وعتابا ، فزادها ذلك إصرارا على الاستمرار في احتجاجها ، فقد أحس وجودها وبدأ يستعطفها وإن لم ينطق بعد بكلمة .

وانفضل الراقصون وراح كل يرقص وحده ، وصمتت الموسيقى ، ولم يعد هناك إلا وقع الأقدام التي تتحرك في توافق تنبعث عنه أصوات كأنها نعم موزون ، وظل الراقصون والراقصات يهتزون على وقع

الأقدام ، واقترب منها حتى صار يمشى إلى جوارها . والتصق كنفه بكتفها ، ورنأ إليها رنوة استعطاف ، ولكنها لم تأبه به ، فقد قررت في نفسها أن تصفح عنه لو أنه عندما تستأنف الموسيقى عزفها يعود ليراقصها هي ويترك غريمتها البيضاء .

واستأنف الموسيقى ضجيجها وعاد كل راقص إلى صاحبه ، وعاد هو إلى زميلته البيضاء وتركها تتم الرقصة وحدها كما بدأتها .

وأفعمت بالغضب ، ومدتها ثورتها بوقود جديد من النشاط فاستمرت تلف وتدور وتمايل وتهتز ، وتوقفت الموسيقى وانتهى المغنى من أغنيته ، وعاد الراقصون إلى أماكنهم ولكنها استمرت في رقصها وحدها .

ورماها صاحبها بنظرة قاسية كلها غضب وأمر ، ولكنها استدارت لها واستمرت في رقصها تستعرض فنونها ، زتدور في قوة لتكشف كل ما يمكن أن ينكشف من جسمها المشقوق ، واضطرت الموسيقى إلى استئناف عزفها : « ترم تكتك تكتك تكتك ... » .

وعاود الناس الرقص ، وقام صاحبها يرقص وقد وطد العزم على ألا يأبه بها وأن يتركها تستمر في احتجاجها حتى ينال منها التعب وترنمى على أقرب مقعد مهزومة تنتحب ، إنه لن يدللها ، وسيجعلها الليلة تفهم أنه السيد الناهى هنا .

وانقضت الرقصة وعاد وصاحبه إلى المنضدة التي جلس إليها الشاب الأبيض الذى قدم برفقة الفتاة ، وجلس هذه المرة وقد أولاها ظهره إمعانا

في الزرابة والاحتقار .

واستمرت ترقص دون أن تتوقف ، وراحت موسيقى الجاز تدق « الرول » وقام راقصون جدد ولم تقم منافستها للرقص ، كان التعب قد بدأ يتدسس إلى سيقانها وإن كانت تخفى ذلك بكنوس الوسكى التي تتشاغل بها .

وبدأت نسائم من الرضا تهب على قلب أفوا ، فقد لاحت في ظلام نفسها بوادر انتصارها ، وشد ذلك من عزمها فجعلت تسرى في حلقة الرقص كالطيف .

وعاد الناس إلى مقاعدهم ليلتقطوا أنفاسهم . ولكنها ظلت ترقص وحدها دون موسيقى ، وأشفق شاب عليها فقام إليها يرقص معها ، ووقف أمامها يهتز ، ودوى الجاز : تيرم .. تيرم .. تيرم .. تلك ، وتقدم منها يلف ذراعه حول وسطها ويمسك يدها بيده ، ولكنها دارت دورة كاملة في رشاقة وانفلتت منه ، ثم راحت تهز أكتافها على النغم هزات كلها رفض وإصرار .

ومر وقت طويل وقد خيم السكون على المكان ، ولم يكن ينبعث إلا صوت وقع أقدامها أو حفيف ثوبها . وتعلقت العيون بها وقد فاضت بالشفقة . وقام شاب آخر ووقف يرقص أمامها بعيدا عنها ، إنه يريد أن يمسخ جرح نفسها وأن يعلنها أنها مرغوبة وأنه يدعوها لتعود معه إلى مائدته ، وظل يقترب منها رويدا رويدا وهو يتأيل معها حتى إذا ما كاد يلتصق صدره بصدرها انفلتت منه بعيدا ، وعاد هو إلى مائدته وقد

أطرق ، وظلت هي في رقصها .
 واستأنفت الموسيقى عزفها ، وخف الراقصون إلى حلقه الرقص ،
 وقام صاحبها وصاحبه يشاركان الناس في رقصهم ، وارتفع صوت
 المغنى :

ماجى دفلك
 ما إن تنتهى من لقائى
 حتى تسرع إلى لقاء آخر ،
 إنها كالنحلة
 ترشف من كل زهرة
 ولكن رحيقها عسل
 ما جى دفلك
 ماجى أكرايا .

وخيل إليها أن المغنى يغنى لها وحدها ، وأن العيون المعلقة بها ترقب
 ماذا ستفعل ماجى الدوارة ، هل تلقى سلاحها وتستسلم أو تصر على
 ثورتها لكبريائها حتى يقدم إليها رجلها صاغرا أو تموت دون هذا .
 وقررت أن تستمر ترقص وحدها حتى تلفظ آخر أنفاسها ، وراح
 الوقت يمر ، وراح موعد عودة الناس إلى دورهم فقد كانت الساعة الثانية
 والنصف صباحا . ولكن أفوا كانت مستمرة في رقصها ، وما فكر أحد
 في أن يغادر مكانه قبل أن يعرف النهاية ..

وهمس هامس :

(ليلة عاصفة)

— أنها تنتحر .

وارتفع الهمس واتجهت الأنظار إلى صاحبها، كان مطرقا يصارع الأحاسيس المتضاربة في أعماقه ، إنه لا يستطيع أن يلج في العناد ، وإنه لعزيز على نفسه أن ينهزم على الملأ ، وظل منها لهواجسه مدة ، وأخيرا اندكت حصون مقاومته وقام وذهب إلى حلقة الرقص والعيون جميعا معلقة به .

وعزفت الموسيقى الصاخبة ، وارتفع صوت المغنى يغنى :

— ماجى دفلک ..

ولم يفكر أحد أن يقوم ليرقص ، وكان الناس جميعا يرقبون أفوا وصاحبها كأنما يرقبون مصارع ثيران ذهب لينازل ثورا جموحا هائجا ، وبدأ يرقص في هدوء ويتقدم في حذر ، رقصه يشتد ويعنف كلما دنا منها ، وبقيتا يتمايلان وكل منهما ينظر إلى صاحبه في عتاب مدة ، وقال :

— ماذا جرى ؟

— ألا تعرف ؟

— لا أفهم شيئا .

— جرحت كبريائى ، ألم تشعر بذلك ؟

— أبدا .

— أهتتنى إهانة لن أغفرها لك أبدا .

فقال وهو يمد ذراعيه ليلفهما حول ظهرها :

— ألا يكفى أن أختتم معك هذه الرقصة ، وتنتهى الليلة بى وبك

— ٢٢٧ —

وحدنا ، ليمسح ذلك ما توهمت أنه إهانة ؟

فقلت له وهي مستمرة في رقصها :

— لا .. على قدر عظم الإهانة يكون الاعتذار .

— أعتذر إليك .

— لا . هذا لا يكفي .

والتمعت في ذهنه فكرة فقال :

— سأقدمك الليلة لصديقي العزيز لتؤنسى وحدته .

وانقشعت الغيوم التي تلبدت في وجهها وأشرق فمها ، وتقدمت إليه

وتركته يلف حولها ويشاركها في الرقص .

وضجت موسيقى الجاز وضجت ثم توقفت فجأة ، ودوى المكان

بالتصفيق ، واتجهت أفوا إلى منضدتها وأخذت حقيبة يدها وفتحتها ، ثم

أصلحت الأحمر الذي كانت تطلي به شفتيها .

وتقدمت صوب المائدة التي جلس عندها الشاب الأبيض والفتاة

البيضاء وهي سعيدة ، فقد برهن صاحبها عن صدق محبته لها ، فما يقدم

الصديق لصديقه إلا أحب فتاة إلى قلبه لتؤنس الصديق في وحدته ،

وتبذل له من فنون الحب ما يجعل الليل الطويل يمر كطرفة عين .

فتاة من تل أبيب

هبطت إيلين من الطائرة في مطار أكرأ وحدها ، وسارت مع الجمع المنطلق إلى المبنى القائم على بعد أمتار من مهبط الطائرة وهي تحمل حقيبة من القماش كتب عليها « الطيران الإسرائيلي ». كانت بيضاء البشرة ، ممتلئة تنم الدوائر البارزة من جسمها على أنها امرأة ناضجة . يعيب وجهها أنف كبير مقوس ، ولكن الظهر العاجي العارى ، والصدر المفتوح الذى يكشف منابت النهدين ، والساقين المنسجمتين ، كل أولئك كان يجذب الأنظار ويبعدها عن الأنف المقوس .

كانت إيلين قد تعرفت فى أثناء الطريق بموظف غانى كبير ، واكتشفت أنه بعيد عن مجال نشاطها ، فلم تجد من الحكمة أن تضع وقتها معه ، فجعلت تتحدث إليه فى تحفظ وإن أظهرت له الوداد ، فقد تحتاج إليه يوما .

وتعرفت ببعض الموظفين من الإنجليز العائدين إلى أعمالهم بعد أن قضوا إجازاتهم فى الخارج ، وتحدثت معهم فى كل شىء إلا عملها الذى قدمت من أجله فهي تعلم أن الإنجليز وإن كانوا يراعونهم ويدلونهم فى الشرق الأوسط ، فلن يتركوهم أبدا ليحلوا محلهم فى أسواق أفريقية ،

فإن أرادت أن تجد مجالا للسلع الإسرائيلية فعليها أن تعتمد على نفسها .
ودخلوا إلى مكان مسقوف ، ووقفوا عند الموظف المختص
بالإجراءات الصحية ، وتقدمت منها فتاة سوداء ترتدى ثوبا أبيض
وقالت في رقة :

— أسمحين لي بمساعدتك ؟

وتناولت منها شهادات التطعيم الدولية ، واتجهت إلى الموظف تملى
عليه البيانات : إيلين إسحاق .. الحمى الصفراء ٩ — ٧ — ١٩٥٨ ،
الجدري نفس التاريخ ، والكوليرا نفس التاريخ .
وتناولت منها جواز سفرها وذهبت به إلى موظف الجوازات وإيلين
واقفة تقلب عينيها في المكان .

ودنا منها الموظف الغاني وقال :

— سيارتي في الخارج ، ستحملك إلى فندق الأمباسادور ، وها هو ذا
السائق عند الباب ينتظرك .

— وأنت ؟

فقال وهو يضحك :

— جاء أصدقائي ليحملوني معهم ، أصرروا على أن يحتفلوا بمقدمي .
وقهقه وقال :

— قالوا إنهم قد أعدوا لهذه المناسبة ثلاث زجاجات وسكى .

— وسكى في الصباح ؟

— الشراب يحلو في كل وقت .

— ٢٣٠ —

وذهبت إلى موظف الجمر ك ووقفت أمام حقيبتها ، وجاء إليها
الموظف وبياض أسنانه وبياض عينيه يأتلقان في وجهه البنى الغامق ،
وتناول منها الجواز وطفق يقلبه بين يديه وقال :

— دبلوماسى ؟

— لا .

ورنا إليها رنوة من طرف عينه كأنما يقول لها : « لا تحاولى أن
تخدعيني » ، وعاد يقول :

— دبلوماسى ؟

— لا .

وأشار إلى الحقيبة الصغيرة وقال وهو يرفع أصبعه إلى عينيه :

— أستطيع أن أنظر ؟

قالت وهى تفتح الحقيبة :

— تستطيع

ونظر وقال كأنما يلقي درسا حفظه عن ظهر قلب دون أن يمد يده إلى

محتويات الحقيبة :

— لا أوراق بنكنوت ؟ لا خمر ؟ لا شئ أبدا ؟

— لا شئ أبدا .

وابتسم ابتسامة عريضة ، ثم أشّر على الحقيبتين بطباشير أخضر وما
كاد ينتهى من تأشيراته حتى كان سائق الموظف الكبير ينقض كالنسر على
الحقيبتين يحملهما ، وسارت خلفه ، وإذا بسيارة حمراء فاخرة فى

انتظارها .

بداية طيبة وإن لم تكن البداية التى تبغيها .

وانطلقت السيارة فى طريق معبد جميل يشق البساط الأخضر الممتد على مدى البصر ، وقد قامت فيه أشجار ضخمة وأشجار نخيل بلا تمر ولا ثمرة ، واجتازت السيارة بعض إشارات المرور ، ثم لاحت منازل قليلة متناثرة من طبقة أو طبقتين ، وقال السائق :

— « البانجالو » ، منازلنا .. أهذه أول مرة تقدمين فيها إلى أكر ؟

— أول مرة ، ولكننى عزمت على أن آتى إلى هنا كثيرا . بلادكم

ساحرة .

وأثلج صدر السائق حتى إنه زاد فى سرعة السيارة .

ووقفت السيارة أمام فندق الأمباسادور ، وهبطت إيلين منها فإذا بها أمام فندق هائل ، طبقات بعضها فوق بعض ، وروعة فى البناء وتنسيق بديع ، وجو شاعرى خلاب .

وصعدت فى بضع درجات من الرخام ، ودلفت من الباب البللورى الكبير الذى كان أبرز ما فيه مقابض من المهوجنى على شكل رأس فيل تدلى منه خرطومه ولف إلى اليسار قليلا ليتم للمقبض انسجامة وروعته . وسارت فى ردهة أرضها من رخام إيطالى بين البنى والأصفر معرق بعروق بيضاء وسوداء ، وفى صدر الردهة سلم رخامى مستدير ومكتب حارس الفندق ، وإلى جانبها ممران يقودان إلى المصاعد ؛ ويفتح عليهما الأبواب المؤدية إلى قاعة الطعام وإلى البار والمقهى ، وإلى حلاق النساء

وإلى حلاق الرجال وفي نهاية الممر الأيسر مكتب الاستقبال .
 واتجهت إيلين إليه وكان يعمل به ثلاث فتيات وطنيات يرتدين
 الأثواب البيضاء ، وسيدة إنجليزية بدا الشيب يتسلل إلى شعر رأسها
 والتجاعيد تتجمع عند طرفي انطباق شفيتها ، وراحت إيلين تتحدث إلى
 السيدة الإنجليزية حديثا عاديا عن غرفتها وعن نظام الفندق ، ثم سرعان
 ما أدارت دفة الحديث إلى الوجهة التي تبغيها ، وقالت :

— من أكبر التجار الوطنيين في أكرا ؟

— المصدرين أم المستوردين ؟

يهمنى أمر المستوردين .

— ألا تحددين نوع السلعة ؟

— لا يهم ما دام يستورد سلعة ما بكميات كبيرة فمن الميسور إقناعه
 باستيراد سلعة أخرى .

فقالت السيدة الإنجليزية في استخفاف :

— أشك كثيرا في ذلك يا سيدتي ، فإننا في عصر التخصص .

— هذا أمر يتعلق كثيرا بمهارة العارض .

وكأنما لم تشأ أن تضيع وقتها فيما لا طائل تحته فقالت :

— لم تقولى لى : من أكبر المستوردين الوطنيين في أكرا ؟

وشردت السيدة الإنجليزية وقالت :

— جوجو دووا .

— فراحت إيلين تردد في نفسها كأنما تثبت اسمه في ذاكرتها :

— ٢٣٣ —

— جوجو دووا .. جوجو دووا .

وانتهت إلى المصعد حيث حمل أحد خدم الفندق حقيبتها وقبض بين أصابعه على مفتاح حجرتها .

وفتح باب الغرفة ونظرت ، وكان أول ما وقعت عليه عيناها التليفون الأبيض الموضوع على نضد قصير رخامته سوداء ، له درج واحد ورف منخفض من الرخام الأسود فوقه دفتر التليفونات .

وأغلق خادف الفندق الباب بعد أن وضع الحقيبتين على الحامل القريب من السرير ، وبعد أن تمهل قليلا لعلها تنفحه شيئا ولكنها لم تفعل ، وتمددت في السرير بثيابها وأزيز جهاز تكييف الهواء والمروحة البيضاء في لون التليفون يتسرب من أذنيها إلى مراكز التفكير فيها فيعوق تسلسل الأفكار التي تريد أن تتدفق .

وقاست إلى جهاز تكييف الهواء وكتمت أنفاسه ، ثم عادت وتمددت في السرير ، ومدت يدها وتناولت دفتر التليفون وجعلت تقلب صفحاته وصوت في أغوارها يردد :

— جوجو دووا .. جوجو دووا .

وعثرت على الرقم فمدت يدها ورفعت السماعة وطلبت من عاملة التليفون بالفندق أن توصلها بها .

وارتفع صوت خشن من الطرف الآخر :

— هالو .. هالو ..

وقالت إيلين في صوت رقيق منغم :

(ليلة عاصفة)

— ٢٣٤ —

— أريد أن أتحدث إلى السيد جوجو دووا المبجل .

— جوجو دووا يتكلم .

— صباح الخير يا سيدى ، إننى سعيدة أن أسمع صوتك ، إننى قادمة الآن من إسرائيل ، وقد قيل لى هناك إن سيادتكم خير من سيأخذ بيدى ، إننى أمثل بعض الشركات الإسرائيلية وقد جئت أعرض منتجاتها على المستوردين ولم يسبق لى أن جئت إلى بلادكم الجميلة من قبل ، إن كل اعتمادى على عونكم وعلى نيلكم الذى فاض الحديث عنه فى إسرائيل .

فقال الرجل فى فرح :

— أو تعرفوننى فى بلادكم ؟

— ليتك تفكر فى أن تزورنا لتعرف حقيقة مكانتكم .

— سأفعل .. سأفعل .

ورأت أن تطرق الحديد وهو ساخن فقالت :

— ومتى أستطيع أن أتشرف بزيارتكم ؟

— فى أى وقت .

— هل أستطيع الآن ؟

— هذا تفضل وتنازل منك .. يسرنى تشريفك لى فى أى وقت .

— العنوان من فضلك .. لحظة أرجوك .

وفتحت حقيبة يدها وأخرجت قلما وورقا صغيرا فى لون الورد وراحت تكتب .

« رينج رود » ثم قالت وهى تبسم :

— إننى الآن فى الطريق إليك .

ونفضت إلى الباب المؤدى إلى الحمام ، ووقفت أمام المرأة المثبتة فوق الحوض تعيد تصفيف شعرها وطلاء شفتيها بالأحمر .

وهبطت مسرعة وهرعت إلى الباب وطلبت تاكسيا وإذا بخمس سيارات تتنافس فى الوصول إليها ، وتغاضى الرجل الأسود الذى يرتدى بذلة بيضاء وقبعة من نفس قماش بدلتة الواقف عند الباب لمن كل السيارات المتنافسة ، وفتح سيارة بينه وبين سائقها ذى اللحية الطويلة صلات ، ودخلت إليها وهى تقول :

— رينج رود .

وانطلقت السيارة فى طرق هادئة كأنها ثعبان أسود تمدد فى غابة ، ثم وقفت أمام بيت من طبقتين ، وغادرت إيلين السيارة ووقفت برهة تتلفت فلم تجد إلا بيوتا متباعدة ، ومجرى لمياه الأمطار على جانبي الطريق ، وامرأة وطنية تدق الموز الكبير فى هاون من الخشب وأمامها موقد عليه إناء أسود به زيت ، تأخذ من الهاون بأصابعها وتقرص ما أخذته ثم تلقى به فى الزيت ، فيصبح أشبه بأقراص الطعمية .

وتقدمت إلى « البانجالو » الذى كان كالبوت الإنجليزية فى الريف ، ودقت جرس الباب ، ففتح شاب أسود يرتدى قميصا كاكيا وبنطلونا قصيرا من قماش القميص ، وفى رجليه نعال ، ووقف ينظر كأنما يسألها عن بغيتها فقالت :

— عندى موعد الآن مع السيد جوجو دووا ، إنه ينتظرنى .

— ٢٣٦ —

وقادها الخادم إلى ردهة مؤتة برياش إنجليزى فاخر ، مناضدها ودواليها محلاة بزخارف ومقابض من فضة خالصة ، وزينت حيطاتها بلوحات فنية ، وقال الخادم وهو يشير إلى مقعد وثير :

— تفضلى .. سأبلغه .

وغاب الخادم قليلا ، ثم هبط فى الدرج النازل من الطبة الثانية مسرعا وهو ينحنى فى أدب فياض :

— تفضلى يا سيدتى .

وصعدت فى الدرج خلفه ، ودخلت غرفة الاستقبال ، وما كادت تستقر فى مقعدها حتى أقبل السيد جوجو دووا ، طويل القامة ، مفتول العضل ، بشرته سوداء داكنة ، وشعره مفلفل ، حليق الشارب واللحية ، يلف جسمه فى ثوبه الأفريقى الأصفر البنى المخطط وقد تعرت ذراعه اليمنى ونصف صدره .

وقال جوجو مرحبا :

— هذا تفضل كبير منك يا سيدتى إيلين أن تكونى البادئة بالزيارة ، لو كنت أعلم لسعيت إليك .

وتصافحا وجلسا ووضع ساقا على ساق ، وجعلت تتحدث وهى ترصد عينيه اللتين كانتا تتجولان فى مفاتها ، وتحدثت طويلا عن مهمتها وعن الشركات التى تمثلها ثم قررت أن تتجه إلى هدفها سريعا ، وأن تضع قدمها على أول الطريق الذى يقودها دائما إلى انتصاراتها ، فراحت تتلفت فى أرجاء المكان ، وقالت همسا وهى تتعمد أن ينحسر الثوب عن



عندى موعد الآن مع السيد جوجو دوتا ، إنه ينتظرني

جزء من فخذها :

— متزوج ؟

فقهقه وهو يرمق الأخدود الغائر بين نهديها وقال :

— من كان مثلى فقلما يتزوج ، وإن كان دائماً الزواج .

وعادت ضحكته الطليقة تجلجل في الغرفة ، وقالت كأنما تداعبه :

— إذن فليس هناك حائل يمنعنا من الزواج .

فقال وهو يقهقه :

— وهل كان وجود زوجة يمنعنا من الزواج ؟ إن أغلب أصدقائي

متزوجون ومع ذلك يمارسون الزواج كل ليلة .

واهتز جسمه جميعاً وهو يضحك ، واتمعت عيناه ببريق الرغبة ،

وجعلت ترقبه وهي لا تدرى أهو في الأربعين أم في الستين فمن العسير

على العين أن تفضح سن الزنوج .

واقترب منها وقال :

— وسكى ؟ نبىذ ؟ أم شراب خفيف ؟

فقالت وهي تبتسم :

— نؤجل الشراب قليلاً .

فقال وهو دائماً الضحك :

— نؤجل أى شيء إلا الشراب .

ونادى على الخادم وطلب منه شراباً كثيراً .

واعتمدت إيلين كأنما تتأهب لإلقاء شيء هام ثم قالت :

— ٢٣٩ —

— أين يمارس الفتيات الحب في أكرّا ؟
— في كل مكان ، كما يمارس الحب في أية مدينة أخرى .
وأشرق وجهه بابتسامة عريضة ، وقالت دون أن تطرف لها عين :
— أقصد هل هناك حديقة عامة يمكن أن يمارس فيها الحب بحرية ؟
— الفتيات الفقيرات يمارسن الحب في أكشاك على الشاطئ .
— هذا منطق جميل ، سحره في بساطته .
وشردت قليلا تفكر في انقضاضتها التالية ، ولكنه كان أسرع منها
ففتح لها الطريق ، قال :
— أملك كشكا بديعا على الشاطئ ..
فقالت وهي تضحك ضحكة ناعمة سرت كالكهرباء في جسمه :
— تمارس فيه الحب ؟
فقال في بساطة :
— أحيانا ..
ثم قال :
— ما رأيك في أن نمضي يومنا هنا ؟
فقالت في تملق :
— أفكارنا واحدة ، ولكن ما من رأى أهم بإبدائه إلا وتسبقني إليه .
وخرج يتأهب للانطلاق معها إلى الشاطئ ، وفتحت حقيبة يدها
وأخرجت أحد العقود التي أعدتها قبل قدومها ، وراحت تراجعها وهي
راضية ، فالثمرة أينعت وحن قطافها .

وانطلقت السيارة بهما وعادت تتحدث عن الأعمال والصفقة التي تود إتمامها ، وكانت كلما أحست أن الضيق أخذ يتسرب إليه تداعبه أو تميل برأسها على كتفه فتنتشع السحب قبل أن تتجمع في صدره .

وبلغا الشاطئ وهبطا من السيارة ، فإذا بثلاثة صفوف من « الكبائن » قام بعضها على قوائم من الخشب وبعضها على قوائم من الخرسانة ، وقد نمت بالقرب من الشاطئ أشجار جوز الهند ، وفي طرف بعيد من هذه الكبائن بنيت أكشاك من الحصى والخيزران ، جلس عندها على الأرض في صف طويل رجال ونساء يتعاونون على سحب حبل في نهايته قارب بعيد على الشاطئ ، قالت إيلين :

— يتعاون كل هؤلاء الرجال والنساء على جر قارب صغير ؟
فضحك جوجو وقال :

— القارب يطرح الشباك ، وهؤلاء يتعاونون على جذب الشباك المليئة بالأسماك . إنهم في بعض الأحيان يعجزون عن سحب الشباك بما فيها فيطلبون من الموجودين على الشاطئ أن يعاونوهم على جذبها .

وغمغت إيلين في طمع :

— ليت شباكي تمتلئ في يسر كشباكهم .

وقال جوجو .

— ماذا تقولين ؟

فقالت وهي تدنو منه :

— كنت أعجب من نفسي ، من كان يصدق أنني سأقف يوما على

شاطئ هذا المحيط ؟

فقال وهو يلتمهم بعينيه لحمها البض العارى :

— أشياء كثيرة لا يمكن أن يتصورها الإنسان قبل أن تقع .

وقادها من يدها إلى « كايينته » .

وكانت تطل على الشاطئ مباشرة فى وسط الكيائن كأنها واسطة عقدها ، تميل فوق سقفها شجرة جوز هند كأنما تحذب عليها ، وأمامها ثلاث شجرات جوز هند كأنما وقفت لتحرسها ، وصعدا فى درجات ثلاث ، وقبل أن يتجها إلى الباب أقبلت فتاة تحمل برتقالا وجاءت أخرى تعرض موزا ، والتفت جوجو إلى إيلين وقال :

— هل أكلت موزا مشويا ؟

— لا .

— هذا أشهى ما أحبه . إنه لذيذ ، ستذوقينه بعد أن نبدل ثيابنا .

وأمر الفتاة أن تشوى بعض الموزات ، ودخلا إلى « الكايينة » وأغلقا

الباب خلفهما .

وراحت إيلين تخلع ثيابها فى ثقة وهو يخلق فيها مهبور النفس زائع البصر ، تندفق دماؤه فى عروقه كلهيب نار ، ووقفت شبه عارية ، وسال لعابه وتحرك ليضمها إليه ، ولكنها اتجهت إلى حقبتها الموضوعة على المقعد الخشبي العريض الطويل الذى لم يكن فى « الكايينة » غيره ، وفتحتها وأخرجت منها العقد والقلم ، واتجهت إليه وقالت فى رقة كاد يذوب لها :

— ألا توقع ؟

— ألا تؤجل ذلك الآن ؟

— لا أستطيع أن ألهو ورأسى مشحون بالعمل ، بالله أرحنى حتى أسعد بهذا اليوم الذى قلما يجود الزمن بمثله .

ووقع مسرعا ليزيل تلك الورقة التى تحول بينه وبين هنائه ، وعادت إلى الحقيقة ووضعت فيها العقد فى حرص ، ثم سلمته جسدها وزهنها يفكر فى طريقة اصطیاد فريستها الثانية .

وأرخت الليل أسجافه وهى فى غرفتها فى الفندق ممددة فى سريرها ، وقد صوبت ناظرها إلى المروحة التى كانت تدور فى السقف دون أن تحفل بها ، كانت مشغولة بالأفكار المتدفقة فى رأسها .

وارتدت ثوبا مكونا من قطعتين ، القطعة العليا بيضاء مخططة بخطوط عرضية زرقاء تكشف كل الظهر والصدر حتى منتصف الشدين ، والقطعة السفلى على هيئة جرس وفى وسطها حزام من جلد أحمر ، وتدلى من أذنيها قرط طويل جدا حتى كاد يمس كتفها .

وهبطت إلى الردهة ، وغادرت المصعد واتجهت إلى باب اليمين ودخلت ووقفت تنظر ، فألفت مناظرة منتشرة فى فناء أمام أشجار الغابة جلس إليها بعض البيض وزوجاتهم وأولادهم ، فراحت تتقدم صوب البار .

ووقفت تدبر عينيها فى المكان : بار على يمين الداخل ، ومقاعد عالية أمام الباب ، ثم بعض المناظرة والكراسى وبيانو ، وفاصل من خشب

— ٢٤٣ —

مفرغ يفصل بين البار وبين قاعة أخرى بها كراسي من الخيزران على شكل نصف كرة محمولة على قوائم من الحديد ، ومناضد منخفضة ، وسجاجيد خضراء وطفاء .

ولمحت رجلاً أسود قصير القامة جالسا إلى البار وحده وأمامه زجاجة وكأس فتقدمت نحو البار وجلست على المقعد المرتفع المجاور له وطلبت بيرة ، وقبل أن يعود الواقف خلف البار بما طلبت كانت قد التفتت إلى جوارها وقالت :

— يخيّل إلى أننا التقينا في سويسرا من قبل !

فقال وهو يتسّم :

— لم يكن لي شرف زيارة سويسرا .

— لا بد أننا التقينا في باريس .

— لم يكن لي حظ زيارتها .

— ولكن شكلك ليس غريبا عني .

— إنني كنت في لندن ، هل زرتها ؟

— لا ، ولكنني مشتاقة إلى سماع أخبارها .

وانتقلا إلى القاعة البعيدة عن البار ، وغاصا في كرسيين من الكراسي الخيزران التي كانت على شكل نصف كرة ، وطفقا يتجاذبان أطراف الحديث وهي تدبر دفته في مهارة ليوصلها إلى مرماها ، واستدرجته حتى قال :

— وماذا ترغبين في مشاهدته في أكرا ؟ .

— ٢٤٤ —

— أتمنى أن أرى حفلة زفاف .

فقال وهو يضحك :

— غدا الأحد وهو يوم حافل بالزواج ، وسأكلف أحدا أصدقائي هنا

باتخاذ كل ما يلزم لنحضر غدا، حفلة عرس ، آه لو كنا في كوماسي

لزوجت أحد أتباعي الساعة وأقمت له حفلة باهرة إكراما لك .

فقالت وهي شاردة كأنما تحلم :

— ألد ما في الوجود أن ينصهر رجل وامرأة ويصبحا شيئا واحدا .

فقال وهو يضحك :

— إنني لا أوافق على هذا الانصهار أبدا وإن كنت من أشد أنصار

الاندماج .

— وهل هناك فرق بين الانصهار والاندماج ؟

— الانصهار هو أن أن يفنى كل من هو وهي ويصبحا شيئا جديدا ؛

أما الاندماج فهو اتصال إلى مدة يتبعه انفصال ، ثم عودة إلى الاتصال

فالانفصال وفيه يحتفظ كل بذاته .

ولم تفهم فلسفته ولا ما كان يحاول شرحه ، ولم تشأ أن تضيع وقتها

في سفسطة لن تؤدي إلى شيء فقالت :

— كنت أقصد الاندماج الذي نتحدث عنه .

— آه .. هذا جميل .. هذا جميل .

ثم اعتدل وقال :

— قلت لك إنني من كبار تجار الماس في كوماسي ، وإنني ما قدمت

— ٢٤٥ —

إلى أكرأ إلا لمقابلة بعض شركائى ، ومن حسن الحظ أن فى غرفتى بعض قطع الماس ، فهل لك رغبة فى مشاهدتها ؟
— والله لقد هممت أن أطلب ذلك .

ونهما وطفقت تحدته عن الصفقة التى تود عقدها معه وهما فى طريقهما إلى غرفته ، وأغلقا الباب خلفهما ، وكانت ليلة .

وانقضت الأيام السبعة التى كان مقررا أن تمكثها إيلين فى أكرأ ، وحان موعد رحيلها فأقبلت إلى الفندق سبع سيارات لحملها إلى المطار ، وهبطت إيلين وأخذت تصافح الرجال السبعة ، وحملت حقائبها التى كثرتها حرارة الجو إلى السيارات ، وذهبت هى إلى السيارة الحمراء الفاخرة ، سياره جوجو دووا ، فقد كان صاحب الفضل لأنه أول من وقع .

وصعدت إلى الطائرة ، وما إن احتلت مقعدها حتى فتحت حقيبة يدها واطمأنت إلى وجود العقود السبعة التى نجحت فى إبرامها ، وضمت الحقيبة إلى صدرها فى فرح ، ونظرت من النافذة ، وأخذت تشير لهم بأصبعها وترسم به نصف دائرة فى الهواء دلالة على أنها ستعود وتعيد الكرة ، وهجس هاجس فى نفسها يوسوس :
— ولكن ليس معكم ، بل مع فرسان آخرين .

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحمس بطل الاستقلال
— أبو ذر الغفارى
— بلال مؤذن الرسول
— فى الوظيفة
— سعد بن أبى وقاص
— هزات الشياطين
— أبناء أبى بكر الصديق
— فى قافلة الزمان
— أميرة قرطبة
— النقاب الأزرق
— المسيح عيسى بن مريم
— أهل بيت النبى
— محمد رسول الله
- تأليف : مولاى محمد على
ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى
- قصص من الكتب المقدسة
— صدى السنين
— حياة الحسين
- (مجموعة أقاصيص)
(مجموعة أقاصيص)
(رواية)
(قصة)
(قصة)
(مجموعة أقاصيص)
(مجموعة أقاصيص)
ترجمت إلى الإندونيسية

— ٢٤٧ —

- (رواية) — الشارع الجديد
- (قصة) — وكان مساء
- (قصة) — أذرع وسيقان
- (قصة) — المستنقع
- (مجموعة أقاصيص) — ليلة عاصفة
- (رواية) — الحصاد
- (قصة) — جسر الشيطان
- (قصة) — النصف الآخر
- (رواية) — السهول البيض
- (قصة) — أم العروسة
- (قصة) — قلعة الأبطال
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتي
- الحفيد
- ذكريات سينائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسرائء والمعراج
- القصة من خلال تجاربي الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- التمر

— ٢٤٨ —

— الله أكبر
— ثلاثة رجال في حياتها
— مسجد الرسول
— فات الميعاد
— آدم إلى الأبد
— العرب في أوروبا
— الدستور من القرآن العظيم

مَحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ

في عشرين جزءا

رقم الإيداع ٢٠٠٥
الترقيم الدولي ٠ — ٣٤٤ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء



الثلث ٥٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه